وسراجا
منيرا

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: وسراجا منيرا
المؤلف: د. هند الورداني
موضوع الكتاب: خواطر
عدد الصفحات: 274 صفحة
عدد الملازم: 17.12 ملزمة
مقاس الكتاب: ١٤ x ٢٠
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-047

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٠١٠١٢٣٥٥٧١٤
٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم. حسب قوانين الملكية الفكرية. ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

وسراجا منيرا

السيرة النبوية الميسرة

تأليف

د. هند الورداني

دار البشير

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾

[الأنبياء: ١٠٧]

الإهداء

- إلى أمي الحبيبة: حفظها الله ورعاها، ورضي عنها وأرضاها، وجزاها عني خير الجزاء.

- إلى الناشر الفاضل أ. علاء الدين عبد الخالق: أسأل الله أن يرزقك شفاعة النبي محمد ﷺ.

مقدمة

إن الكتابة عن النبي ﷺ شرفٌ عظيمٌ، فأحمد الله ﷻ الذي منحني هذا الشرف. ومحمد ﷺ شخصية فريدة في تاريخ البشرية، فهو يكاد يكون الشخص الوحيد الذي نُقِلَ إلينا كل حركاته وسكناته، وصمته وكلامه، ووصفه وصفاته؛ وذلك لشدة حب الصحابة إليه، حتى حفظوا عنه كل شيء.

والعظماء في التاريخ كُثُر، إلا أن محمدًا ﷺ له في العظمة شأو كبير، فقد أجمع على مدحه القريب والغريب، والعدو والصديق، وليس ذلك ناجمًا عن ميراث ذاتي أو شخصي، وإنما هو ميراث الاصطفاء الإلهي.. ميراث النبوة.

ولا شك أن الأمة في حاجة شديدة إلى اقتفاء أثر رسول الله ﷺ واتباع هَديه القويم؛ من أجل القيام من كبوتها والعودة إلى منابع حضارتها، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[الأحزاب: ٢١]، ومَن وجب التأسي به وجب معرفته، ولذلك كان لزامًا على الإنسان المسلم معرفة سيرة خاتم الأنبياء ﷺ؛ ليتعرف

كيف كان حاله في الرخاء، وكيف كان حاله في الشدة، وكيف عامل أصدقاءه، وكيف عامل أعداءه، ومتى كان يعفو ويصفح، ومتى كان يغضب... وغيرها من سائر المقامات والأحوال.

وقد رأيت أن أكتب في سيرة نبينا ﷺ كتابًا ميسرًا، يسهل فهمه واستيعابه على المبتدئين، ولا يكون حكرًا على المتخصصين، فحاولت أن ألخص أهم وأبرز الأحداث، وأعرضها في قالب يجذب القراء، وكنت قد قدمت قبل خمسة أعوام حلقات مختصرة مكتوبة عن سيرة النبي ﷺ، توقفت فيها عند غزوة الأحزاب، وكانت تنزل تباعًا على وسائل التواصل الاجتماعي، ثم عرض لي ما شغلني عنها، حتى تقدمت إليّ دار النشر باقتراح لاستكمالها وجمعها في كتاب، فمِلتُ للفكرة، ثم رأيت في منامي رؤيا تحمل الخير حول هذا الكتاب، فأسميته (التيسير)، سائلة الله ﷻ أن يجعله سبيلًا للتيسير على كاتبته، وعلى كل من قرأه في الدنيا والآخرة، وأن يتقبله مني قَبولًا حسنًا، وأن يرزقني وإياكم شفاعة النبي المصطفى ﷺ.

هند محمد الورداني

elwardany.hend@gmail.com

أسماؤه ﷺ

إن لنبي الله ﷺ أسماء، جاء بها القرآن والسنة، وفي تعدد أسمائه دلالة على عظم مقامه وما حباه به الله تعالى من شرف النبوة الخاتمة. قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال ﷻ -على لسان عيسى عليه السلام-: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

ويقول رسول الله ﷺ: (إنَّ لِي أسْماءً، أنا مُحَمَّدٌ، وأنا أحْمَدُ، وأنا الماحِي الذي يَمْحُو اللهُ بيَ الكُفْرَ، وأنا الحاشرُ الذي يُحْشَرُ النَّاسُ علَى قَدَمَيَّ، وأنا العاقِبُ الذي ليسَ بَعْدَهُ أحَدٌ) [متفق عليه].

وفي رواية لمسلم، قال ﷺ: (أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ).

- والمُقفِّي، أي: المُتَّبِع للأَنبياءِ الَّذي جاء بعْدَهم وفي آخِرِهم، وقافيَةُ كُلِّ شيءٍ آخِرُه، فهُو آخِرُ الأَنبياءِ.

- والحاشر معناه: أنَّه أوَّلُ مَن يُحْشَرُ، ثم يُحشَرُ الناسُ بعدَه.

- ونَبِيُّ التَّوبةِ؛ لأنَّه تَوَّابٌ كَثيرُ الرُّجوعِ إلى الله تَعالى، أو لأَنَّه قُبِلَ من أُمَّتِه التَّوبةُ بمجرَّدِ الاستِغفارِ بخِلافِ الأُممِ السَّالفَةِ.

- ونَبِيُّ الرَّحمةِ، والرَّحمةُ: إفاضةُ النِّعمِ على المحتاجينَ، والشَّفقةُ عليهم، واللُّطفُ بهم، وهو ﷺ بالمؤمنينَ رَؤوفٌ رَحيمٌ؛ ولِذا كانت أُمَّتُه أُمَّةً مَرحومةً، ويَكْفي في ذلك قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧][1].

(١) انظر: الموسوعة الحديثية للدرر السنية.
https://dorar.net/hadith/search?q=%D9%86%D8%A8%D9%8A+%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%85%D8%A9&st=w&xclude=&rawi%5B%5D=

وصف النبي ﷺ

وقد وصف الله ﷻ نبيه في كتابه بعدد من الأوصاف، منها:

- **النبي الأُمي**: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وفي أميته ﷺ لدليل دامغ على صدق نبوته، فما كان لمحمد ﷺ الذي لم يتعلم القراءة، ولم يعرف الكتابة أن يأتي بمثل هذا الكلام البليغ، الذي عجزت العرب والعجم عن مجاراته، فكان دليل الصدق على أن القرآن كلام الله ﷻ، وأن محمدًا ﷺ رسول الله الصادق الوعد الأمين.

- رحمة للعالمين: قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

- بالمؤمنين رءوف رحيم: قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

- مبشرًا ونذيرًا: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

- السراج المنير: قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٦].

- الهادي إلى الصراط المستقيم: قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

وصفه ﷺ في السنة المطهرة:

- **الحاجز عن النار**: قال ﷺ: (مَثَلي ومَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نارًا، فَجَعَلَ الجَنادِبُ والْفَراشُ يَقَعْنَ فيها، وهو يَذُبُّهُنَّ عَنْها، وأنا آخِذٌ بحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِن يَدِي) [مسلم: ٢٢٨٥].

- نذير الحرب: قال ﷺ: (مَثَلي ومَثَلُ ما بَعَثَنِي الله، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فقالَ: رَأَيْتُ الجَيْشَ بعَيْنَيَّ، وإنِّي أنا النَّذِيرُ العُرْيانُ، فالنَّجاءَ النَّجاءَ، فأطاعَتْهُ طائفَةٌ فأدْلَجُوا علَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وكَذَّبَتْهُ طائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فاجْتاحَهُمْ) [البخاري: ٦٤٨٢].

- اللبنة المتممة لبناء النبوة: قال ﷺ: (مَثَلي ومَثَلُ الأنْبياءِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دارًا فأتَمَّها وأَكْمَلَها إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَة، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَها ويَتَعَجَّبُونَ منْها، ويقولونَ: لَوْلا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ قالَ رَسولُ الله ﷺ: فأنا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ، جِئْتُ فَخَتَمْتُ الأنْبِياءَ) [متفق عليه].

وصفه ﷺ في الكتاب المقدس:

- النبي الأمي:

يبشر الكتاب المقدس بالنبي الأميّ، فيتوعد إشعيا العصاة من بني إسرائيل الذين يحرفون كتاب الله ولا يلتزمون شريعته بالنبي صاحب السفر المختوم، الذي لا يعرف القراءة، فيقول: "لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَكَبَ عَلَيْكُمْ رُوحَ سُبَاتٍ وَأَغْمَضَ عُيُونَكُمُ. الأَنْبِيَاءُ وَرُؤَسَاؤُكُمُ النَّاظِرُونَ غَطَّاهُمْ، وَصَارَتْ لَكُمْ رُؤْيَا الْكُلِّ مِثْلَ كَلاَمِ السِّفْرِ الْمَخْتُومِ الَّذِي يَدْفَعُونَهُ لِعَارِفِ الْكِتَابَةِ قَائِلِينَ: "اقْرَأْ هذَا". فَيَقُولُ: "لاَ أَسْتَطِيعُ لأَنَّهُ مَخْتُومٌ"، أَوْ يُدْفَعُ الْكِتَابُ لِمَنْ لاَ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ وَيُقَالُ لَهُ: "اقْرَأْ هذَا". فَيَقُولُ: "لاَ أَعْرِفُ الْكِتَابَةَ""[1].

- حجر الزاوية:

إن النبي ﷺ حجر الزاوية في بناء النبوة، ورأس هرمها وخاتمتها، ونجد مصداق ذلك في الكتاب المقدس من بشارة عيسى عليه السلام، يقول: "الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟"[2].

(١) إشعيا (٢٩/ ١٠ - ١٢).

(٢) مَتَّى: (٢١/ ٤٢ - ٤٤)، مرقس: (١٢/ ١٠ - ١١)، لوقا: (٢٠/ ١٧ - ١٨).

- مشتهَى الأمم (محماد):

يبشر النبي حجي بالمخلِّص الموعود مشتهَى كل الأمم، فيقول: "وَيَأْتِي مُشْتَهَى كُلِّ الأُمَمِ.. مَجْدُ هذَا الْبَيْتِ الأَخِيرِ يَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ مَجْدِ الأَوَّلِ"[1]. يقول المؤرخ ويل ديورانت: "ولفظ محمد مشتق من الحمد، وهو مبالغة فيه، كأنه حمد مرة بعد مرة، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات التوراة تبشر به"[2].

وهكذا نجد أن أوصاف الكتاب المقدس تطابق أوصافه في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

(١) حجي: (٢/ ٦ - ٩).

(٢) انظر: هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟ منقذ السقار، ص: ١١١/ وقصة الحضارة، ويل ديورانت، (ج ١٣/ ص: ٢١)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، تونس - بيروت، لم أقف على سنة الطبع، عدد الأجزاء: ٤٤.

صفة النبي ﷺ

أنعم الله تعالى على نبيه ﷺ بعظيم الخُلُق، وجميل الخِلقَة، فاجتمعت له القلوب، وأحبته العيون. يقول جابر بن سمرة رضي الله عنه: (رأيتُ رسولَ الله ﷺ في ليلةِ إضحيان وعليه حُلَّةٌ حمراءُ فجعلتُ أُماثلُ بينه وبين القمرِ فكان في عيني أحسنَ من القمرِ)[1].

فأحبه الصحابة الكرام حتى اهتموا بنقل أدق أوصافه إلينا. يصفه أنس بن مالك رضي الله عنه، فيقول: (كانَ ﷺ رَبْعَةً مِنَ القَوْمِ ليسَ بالطَّويلِ ولَا بالقَصيرِ، أزْهَرَ اللَّوْنِ ليسَ بأَبْيَضَ، أمْهَقَ ولَا آدَمَ، ليسَ بجَعْدٍ قَطَطٍ، ولَا سَبْطٍ رَجِلٍ، أُنْزِلَ عليه وهو ابنُ أرْبَعِينَ، فَلَبِثَ بمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عليه، وبالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ، وقُبِضَ وليسَ في رَأْسِهِ ولِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ)[2].

"ورَبْعةً من القَوم"، أي: مُتوسِّطَ الطُّولِ بيْنَ الطَّويلِ المُفرِطِ في الطُّولِ، والقَصيرِ الشَّديدِ القِصَرِ.

(١) أخرجه الترمذي: (٢٨١١).
(٢) أخرجه البخاري: (٣٥٤٧).

"وأزْهَرَ اللَّونِ"، أي: أبْيَضَ مُشرَبًا بحُمْرةٍ، ليس بأبْيَضَ "أمْهَقَ"، أي: لم يكُنْ خالصَ البَياضِ كلَونِ الجِيرِ، وهو لَونٌ غيرُ مُحبَّبٍ في البِشَرِ، "ولا آدَمَ"، أي: وكذلك لم يكُنْ أسمَرَ اللَّونِ.

أمَّا شَعرُه فإنَّه "ليس بجَعْدٍ قَطَطٍ"، أي: ليس شَعرُه خشِنًا شَديدَ الخُشونةِ كشَعرِ الحَبَشةِ، "ولا سَبِطٍ"، أي: ولا ناعِمَ الشَّعرِ شَديدِ النُّعومةِ، ولكنَّه شَعرٌ "رَجِلٌ"، يَعْني: مُنسَرِحًا مُسترسِلًا، فيه بَعضُ التَّكسُّرِ (ما نسميه بلغتنا المعاصرة "تمويج خفيف").

ثمَّ أخبرَ رضي الله عنه أن الشيب لم يغطِّ رأس النبي ﷺ في كبره، بل كان قليلًا جدًا، حتى أنه قُبِضَ ﷺ وليس في رَأسِه ولِحْيتِه سوى عِشرينَ شَعرةً بَيضاءَ.

ويقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لم يَكنِ النَّبيُّ ﷺ بالطَّويلِ ولا بالقصيرِ، شَثْنُ الْكفَّينِ والقدَمينِ، ضخمُ الرَّأسِ، ضخمُ الكراديسِ، طَويلُ المسرَبةِ، إذا مشى تَكفَّأَ تَكفُّؤًا كأنَّما انحطَّ من صبَبٍ، لم أرَ قبلَهُ ولا بعدَهُ مثلَهُ ﷺ)[1].

- "شَثْنَ الكفَّينِ والقدَمينِ"، أي: فيهما غِلَظٌ وقِصَرٌ، وقيل: في أصابعِه غِلَظٌ وليس فيه قِصَرٌ، فيكونُ اللِّينُ في جلدِه ﷺ، والغِلَظُ يكونُ في العِظامِ، فيكونُ للنَّبيِّ ﷺ نعومةُ البدَنِ مع قوَّتِه.

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٧)، والحاكم (٤١٩٤).

- "ضَخْمَ"، أي: كبيرَ وعظيمَ "الرَّأس"، "ضَخْمَ" عظيمَ "الكَرَادِيسِ"، وهي اجتماعُ كلِّ عَظْمينِ ضَخْمين، مِثْلِ الرُّكبتَيْنِ، والمَنْكِبَين.

- "طويلَ المَسْرُبةِ"، والمَسْرُبةُ هي الشَّعَرُ الدَّقيقُ الَّذي يكونُ مِن الصَّدرِ حتَّى السُّرَّةِ.

- "إذا مشَى تكَفَّأ"، والتَّكفُّؤُ هو التَّمايُلُ في المشي إلى الأمام، "تكفُّؤًا كأنَّما انحَطَّ"، أي: كأنَّه ينحدِرُ "من صَبَب"، وهو المكانُ المنحَدِرُ من الأرضِ، والمعنى أنَّه ﷺ كان يُسرِعُ في مَشيه:

- ثمَّ قال عليٌّ رضي الله عنه: "لم أرَ قبْلَه"، أي: لم أُشاهِدْ قبْلَ النَّبيِّ ﷺ رجُلًا مثلَه في حُسنِ خِلقَتِه وخُلقِه "ولا بعْدَه مِثْلَه"، ولا رأيْتُ بعد النَّبيِّ ﷺ أحدًا يُشبِهُه في كَمالِ خِلْقتِه وخُلقِه[1].

وصف أم معبد:

وذلك أَنَّ رَسُولَ الله، ﷺ، حِينَ أُخْرِجَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ، وَمَوْلَى أَبِي بَكْرٍ: عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَدَلِيلُهُمَا اللَّيْثِيُّ: عَبْدُ الله بْنُ الْأُرَيْقَطِ، مَرُّوا عَلَى خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيَّةِ، فَسَأَلُوهَا لَحْمًا، وَتَمْرًا، لِيَشْتَرُوهُ مِنْهَا، فَلَمْ يُصِيبُوا عِنْدَهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَ الْقَوْمُ مُرْمِلِينَ مُسْنِتِينَ. فَقَالَتْ: وَالله لَوْ كَانَ

(١) انظر: الدرر السنية.

عِنْدَنَا شَيْءٌ مَا أَعْوَزْنَاكُمْ نَحْرَهَا. فَنَظَرَ رَسُولُ الله، ﷺ، إِلَى شَاةٍ فِي كِسرِ الْخَيْمَةِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ؟ قَالَتْ: شَاةٌ خَلَّفَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْغَنَمِ. قَالَ: أَبِهَا مِنْ لَبَنٍ؟ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ؟ قَالَتْ: هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبَهَا؟ قالت: إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاحْلِبْهَا. فَدَعَا بِهَا رسولَ الله ﷺ، فَمَسَحَ بِيَدِهِ ضَرْعَهَا، وَسَمَّى الله تَعَالَى، وَدَعَا لَهَا فِي شَاتِهَا، فَتَفَاجَّتْ عَلَيْهِ وَدَرَّتْ وَاجْتَرَّتْ.

وَدَعَا بِإِنَاءٍ يُرْبِضُ الرَّهْطَ، فَحَلَبَ فِيهِ ثَجًّا حَتَّى عَلَاهُ الْبَهَاءُ، ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى رَوِيَتْ، وَسَقَى أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوُوا، ثُمَّ شَرِبَ آخِرَهُمْ رَسُولُ الله، ﷺ، ثُمَّ أَرَاضُوا، ثُمَّ حَلَبَ فِيهِ ثَانِيًا بَعْدَ بَدْءٍ حَتَّى مَلأَ الْإِنَاءَ، ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا، ثُمَّ بَايَعَهَا، وَارْتَحَلَ عَنْهَا. فَقَلَّ مَا لَبِثَتْ حتى جَاءَهَا زَوْجُهَا أَبُو مَعْبَدٍ يَسُوقُ أَعْنُزًا عِجَافًا. فَلَمَّا رَأَى أَبُو مَعْبَدٍ اللَّبَنَ عَجِبَ وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا اللَّبَنُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ، وَالشَّاءُ عَازِبٌ حِيَالٌ، وَلَا حَلُوبَ فِي الْبَيْتِ؟

فَقَالَتْ: لَا وَالله إِلَّا أَنَّهُ مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا.

قَالَ: صِفِيهِ لِي يَا أُمَّ مَعْبَدٍ. قَالَتْ: (رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، أَبْلَجَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الْخَلْقِ، لَمْ تَعِبْهُ نُحْلَةٌ، وَلَمْ تُزْرِ بِهِ

صَعْلَـةٌ، وَسِـيمٌ قَسِـيمٌ، فِي عَيْنِـهِ دَعَـجٌ، وَفِي أَشْـفَارِهِ غَطَـفٌ، وَفِي صَوْتِـهِ صَهَـلٌ، وَفِي عُنُقِـهِ سَـطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِـهِ كَثَاثَـةٌ، أَزَجُّ أَقْـرَنُ. إِنْ صَمَـتَ فَعَلَيْـهِ الْوَقَـارُ، وَإِنْ تَكَلَّـمَ سَـمَا وَعَـلَاهُ الْبَهَـاءُ، أَجْمَـلُ النَّـاسِ وَأَبْهَـاهُ مِـنْ بَعِيـدٍ، وَأَحْـلَاهُ وَأَحْسَـنُهُ مِـنْ قَرِيـبٍ. حُلْـوُ الْمَنْطِـقِ، فصـل، لا نـزر ولا هـزر. كَأَنَّ مَنْطِقَـهُ خَـرَزَاتُ نَظْـمٍ ينحـدرن. ربعـة لَا مِـنْ طُـولٍ، وَلَا تَقْتَحِمُـهُ عَـيْنٌ مِـنْ قِـصَرٍ، غُصْنًـا بَـيْنَ غُصْنَـيْنِ فَهُـوَ أَنْـضَرُ الثَّلَاثَـةِ مَنْظَـرًا، وَأَحْسَـنُهُمْ قَـدْرًا، لَـهُ رُفَقَـاءُ يَحُفُّـونَ بِـهِ، إِنْ قَـالَ أَنْصَتُـوا لِقَوْلِـهِ، وَإِنْ أَمَـرَ تَبَـادَرُوا إِلَى أَمْـرِهِ، مَحْفُـودٌ مَحْشُـودٌ، لَا عَابِـسٌ وَلَا مُفْنِـدٌ ﷺ).

فَقَـالَ أَبُـو مَعْبَـدٍ: هُـوَ وَاللهِ صَاحِـبُ قُرَيْـشٍ الَّـذِي ذُكِـرَ لَنَـا مِـنْ أَمْـرِهِ مَـا ذُكِـرَ بِمَكَّـةَ، وَلَقَـدْ هَمَمْـتُ أَنْ أَصْحَبَـهُ، وَلَأَفْعَلَـنَّ إِنْ وَجَـدْتُ إِلَى ذَلِـكَ سَـبِيلًا.

"مُرْمِلِينَ"، أي: قَدْ نَفِدَ زَادُهُمْ.

"مُشْـتِينَ" يُرِيـدُ دَاخِلِـينَ فِي الشِّـتَاءِ. وَيُـرْوَى: "مُسْـنِتِينَ" أَيْ دَاخِلِـينَ فِي السَّـنَةِ، وَهِـيَ: الْجَـدْبُ وَالْمَجَاعَـةُ.

"كِسْرُ الْخَيْمَةِ" يُرِيدُ جَانِبًا مِنْهَا.

"فَتَفَاجَّتْ" يُرِيدُ فَتَحَتْ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهَا لِلْحَلْبِ.

"دَعَا بِإِنَاءٍ يُرْبِضُ الرَّهْطَ" أَيْ يَرْوِيهِمْ حَتَّى يُثْقَلُوا فَيُرْبَضُوا.

وَالرَّهْطُ: مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشَرَةِ.

"ثَجًّا" أي: سَيْلًا.

"حَتَّى عَلَاهُ الْبَهَاءُ" يُرِيدُ عَلَا الْإِنَاءَ بَهَاءُ اللَّبَنِ، وَهُوَ وَبِيصُ رِغْوَتِهِ.

يُرِيدُ أَنَّهُ مَلَأَهَا.

"فَشَرِبُوا حَتَّى أَرَاضُوا"، أي: شَرِبُوا حَتَّى رَوُوا فَنَقِعُوا بِالرِّيِّ.

"تَشَارَكْنَ هزلا": أَيْ عَمَّهُنَّ الْهُزَالُ، فَلَيْسَ فيهن مُنْقِيَةٌ وَلَا ذَاتُ طَرْقٍ، وهو من الاشتراك.

"وَالشَّاءُ عَازِبٌ" أَيْ بَعِيدٌ فِي الْمَرْعَى.

وَقَوْلُهَا: "ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ": تُرِيدُ ظَاهِرَ الْجَمَالِ.

وَقَوْلُهَا: "أَبْلَجُ الْوَجْهِ" تُرِيدُ مُشْرِقُ الْوَجْهِ مُضِيئُهُ.

وَقَوْلُهَا: "لَمْ تَعِبْهُ نُحْلَةٌ" فَالنُّحْلُ: الدِّقَّةُ وَالضَّمَرُ.

وقولها: "ولم تزريه صُقْلَةٌ" . فَالصُّقْلُ: مُنْقَطَعُ الْأَضْلَاعِ. وَالصُّقْلَةُ: الْخَاصِرَةُ. تُرِيدُ أَنَّهُ ضَرْبٌ لَيْسَ بِمُنْتَفِخٍ وَلَا نَاحِلٍ. وَيُرْوَى "لَمْ تَعِبْهُ ثجلة ولم تزريه صُعْلَةٌ" .

وَالثُّجْلَةُ: عِظَمُ الْبَطْنِ وَاسْتِرْخَاءُ أَسْفَلِهِ.

وَالصُّعْلَةُ: صِغَرُ الرَّأْسِ .

وَالْوَسِيمُ: الْحَسَنُ الْوَضِيءُ وَكَذَلِكَ الْقَسِيمُ. وَالدَّعَجُ: السَّوَادُ فِي الْعَيْنِ وَغَيْرِهِ.

وَقَوْلُهَا: "فِي أَشْفَارِهِ عَطَفٌ": هُوَ أَنْ تَطُولَ الْأَشْفَارُ[1] ثُمَّ تَنْعَطِفُ. وَالْعَطَفُ أَيْضًا - إِنْ كَانَ هُوَ الْمَحْفُوظُ - شَبِيهٌ بِذَلِكَ، وَهُوَ انْعِطَافُ الْأَشْفَارِ. وَرُوِيَ: "وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ" وَهُوَ الطُّولُ.

وَقَوْلُهَا: "فِي صَوْتِهِ صَهَلٌ" وَيُرْوَى "صَحَلٌ" أَيْ كَالْبُحَّةِ، وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ حَادًّا.

وَقَوْلُهَا: "فِي عُنُقِهِ سَطَعٌ" أَيْ طُولٌ.

"إِنْ تَكَلَّمَ سما": تريد عَلَا بِرَأْسِهِ أَوْ يَدِهِ.

وَقَوْلُهَا فِي وَصْفِ مَنْطِقِهِ: "فصل لا نزر وَلَا هَذْرٌ" تُرِيدُ أَنَّهُ وَسَطٌ لَيْسَ بِقَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ.

وَقَوْلُهَا: "لَا يَأْسَ مِنْ طُولٍ" يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِنَّهُ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الَّذِي يُؤْيِسُ مُبَارِيَهُ عَنْ مُطَاوَلَتِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَصْحِيفًا، وَأَحْسَبُهُ: "لَا بائن من طُولٍ".

وَقَوْلُهَا: "لَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ" لَا تَحْتَقِرُهُ وَلَا تَزْدَرِيهِ.

---

(١) والأشفار: بمعنى رموش العين.

مَخْفُـودٌ: أَيْ مَخْـدُومٌ، مَحْشُـودٌ: هُـوَ مِـنْ قَوْلِـكَ حَشَـدْتُ لِفُـلَانٍ فِي كَـذَا: إِذَا أَرَدْتَ أَنَّـكَ أَعْـدَدْتَ لَـهُ وَجَمَعْـتَ.

وَقَوْلُهَـا: "لَا عَابِـسٌ" تُرِيـدُ لَا عَابِـسَ الْوَجْـهِ وَلَا مُعْتَـدٍ مِـنَ الْعَـدَاءِ وَهُـوَ: الظُّلْـمُ[1].

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي. (١/ ٢٢٤ - ٢٢٩).

معجزاته ﷺ

أوتيَ النبي ﷺ القرآن معجزةً كبرى، ومثله معه طائفة من المعجزات التي تحتار فيها العقول، فجمع الله له من الآيات المعنوية والمادية ما يفوق من سبقوه من الأنبياء، ويكفينا من سيرته العطرة وكلام الله المنزل عليه دليلاً بصدق نبوته وطهارة قلبه، وقد قال الإمام ابن حزم رحمه الله: "إن سيرة محمد لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنه رسول الله ﷺ حقًّا، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته لكفى"(١).

لقد كُتِبَ لرسالة محمد ﷺ الخلود، فكانت من أظهر دلائل صدق نبوته، وذلك أن معجزته الكبرى "القرآن الكريم" تختلف عن معجزات من سبقوه من الأنبياء، من حيث كونها معجزةً معنوية متجددة، بينما اقتصر الأمر في الأمم السابقة على معجزات مادية تنتهي بانتهاء وقتها، ولا يتأثر بها إلا من شهدها وعاينها، كعصا موسى، وناقة صالح. يقول ﷺ: (ما مِنَ الأَنْبِياءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه البَشَرُ، وإِنَّما كانَ

(١) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم الأندلسي، (ج ٢/ ٢٣١)، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت.

الـذي أُوتِيـتُ وَحْيًـا أَوْحـاهُ الله إِلَيَّ، فأَرْجُـو أَنْ أَكُـونَ أَكْثَرَهُـمْ تابِعًـا يَـومَ القِيامَـةِ) [البخـاري: ٤٩٨١].

"والسـبب في كـون القـرآن معجـزة معنويـة هـو أن معجـزة كل نبـي تتناسـب مـع طبيعـة رسـالته، فالأنبيـاء قبـل بعثـة محمـد ﷺ كانـت بعثتهـم مخصوصـة لأقـوام بعينهـم ولأزمـانٍ محـددة؛ ولذلـك ناسـب أن تكـون معجزاتهـم وقائـع ماديـة تنقـضي بانقضـاء آجالهـا. أمـا خاتـم الأنبيـاء محمـد المبعـوث للنـاس كافـة فقـد اقتضـت عالمية رسـالة الإسـلام أن تكـون معجزتـه ﷺ أمـرًا معنويًـا تتلـوه الألسـنة ويخاطـب عقـول الأجيـال في كل زمـانٍ ومـكان، إلى أن يـرث الله الأرض ومـن عليهـا، ولهـذا فقـد وقـع التحـدي بالقـرآن دونًـا عـن سـائر الكتـب السـماوية التـي تفتقـر إلى مواطـن الإعجـاز، وأوكل حفظهـا إلى أهلهـا فبدلـوا وحرّفـوا وطالـت عليهـم الأزمـان"[1].

وأما معجزاته ﷺ المادية، فمنها:

١- خطاب الأشجار والأحجار:

عـن عبـد الرحمـن بـن عبـد الله بـن مسـعود قـال: سَـأَلْتُ مَسْرُوقًـا: مَـن آذَنَ النَّبـيَّ ﷺ بالجِـنِّ لَيْلَـةَ اسْـتَمَعُوا القُـرْآنَ؟ فَقـالَ: حدَّثَنـي أَبُـوكَ -يَعْنِـي عَبْـدَ الله- أَنَّه آذَنَتْ بِهِمْ شَـجَرَةٌ[2].

(١) باب السعادة، هند الورداني، ص: ١٢.

(٢) متفق عليه.

وعن جابر بن سمرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:

"إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّـَة كانَ يُسَـلِّمُ عَـلَّي قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُـه الآنَ"[١].

٢- تكلم الحيوان معه ﷺ:

عـن عبـد الله بـن جعفـر بـن أبي طالـب ﵄ قـال: رَكِـبَ رسـولُ الله ﷺ بغلتُـه ، وأردفَنـي خلفَـهُ ، وَكانَ رسـولُ الله ﷺ إذا تـبرَّزَ كانَ أحـبَّ مـا تـبرَّزَ فيـهِ هـدَفٌ يسـترُ بـه، أو حائـشُ نخـلٍ، فدخـلَ حائطًـا لرجـلٍ مـنَ الأنصـارِ، فـإذا فيهِ ناضـحٌ لَـهُ - أي: جمـل -. فلمَّا رأى النَّبـيَّ ﷺ، حـنَّ وذرفَـت عينـاهُ، فَنـزلَ رسـولُ الله ﷺ، فمسـحَ ذِفـراهُ وسَراتَـهُ، فسَـكَنَ فقـالَ: مَـن ربُّ هـذا الجمـلِ؟ فجـاءَ شـابٌّ مـنَ الأنصـارِ، فقـالَ: أَنـا، فقـالَ: "ألا تتَّقـي الله في هـذِهِ البَهيمـةِ الَّتـي ملَّـكَكَ الله إيَّاهـا، فإنَّـهُ شَـكاكَ إليَّ وزعمَ أنَّكَ تجيعُهُ وتدئبُـهُ - أي: لا تطعمـه حتـى يؤذيـه الجـوع، وتتعبـه بالعمـل الكثـير -"[٢].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٢٧٧).

(٢) أخرجـه أبـو داود: (٢٥٤٩)، وهـو صحيـح عـلى شرط مسـلم، وأصلـه في مسـلم مـن غـير قصـة الجمـل.

٣- تكثير الماء:

عن أنس بن مالك ﷺ قال:

أُتِيَ النبيُّ ﷺ بإنَاءٍ، وهو بالـزَّوْرَاءِ، فَوَضَـعَ يَـدَهُ في الإنَـاء، فَجَعَـلَ المَـاءُ يَنْبُـعُ مِـن بَـيْنِ أصَابِعِـهِ، فتَوَضَّـأَ القَـوْمُ قـالَ قَتَـادَةُ: قُلـتُ لأنَـسٍ:

كَمْ كُنْتُمْ؟ قالَ: ثَلَاثَ مِئَةٍ، أوْ زُهَاءَ ثَلَاثِ مِئَةٍ.(١)

٤- شفاء المرضى:

في يـوم خيـبر دعـا النبـي ﷺ عـلي بـن أبي طالـب ﷺ وكان أرمـد، فبصـق في عينيه فـبرئ - بـإذن الله -(٢).

وعـن يزيـد بـن أبي عبيـد، قـال: رَأَيْـتُ أَثَـرَ ضَرْبَـةٍ في سَـاق سَـلَمَةَ، فَقُلـتُ: يـا أَبَـا مُسْـلم، مـا هـذه الضَّرْبَـةُ؟ فَقَـالَ: هـذه ضَرْبَةٌ أَصَابَتْنِـي يَـومَ خَيْـبَرَ، فَقَـالَ النَّـاسُ: أُصِيـبَ سَـلَمَةُ، فأَتَيْـتُ النَّبِـيَّ ﷺ، فَنَفَـثَ فيـه ثَـلَاثَ نَفَثَاتٍ، فَما اشْتَكَيْتُهَا حتَّى السَّـاعَةِ(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٣٥٧٢).
(٢) انظر أصل الحديث في مسلم، رقم: (١٨٠٧).
(٣) أخرجه البخاري: (٤٢٠٦).

٥ - الجذع يحن إلى النبي ﷺ:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كانَ المَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِن نَخْلٍ، فَكانَ النبيُّ ﷺ إذَا خَطَبَ يَقُومُ إلى جِذْعٍ منها، فَلَمَّا صُنِعَ لَه المِنْبَرُ وكانَ عليه، فَسَمِعْنَا لذلكَ الجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ العِشَارِ، حتَّى جَاءَ النبيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ[1].

٦- انشقاق القمر:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انْشَقَّ القَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسولِ الله ﷺ شِقَّتَيْنِ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: "اشْهَدُوا"[2].

فلما رأوا ذلك قالوا: سحر محمد أعيننا. فقال بعضهم: إن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس أجمعين، فاسألوا الركبان إذا جاءوا من الأسفار، فكلما جاء أحد سألوه: هل رأيت القمر انشق؟ فيقولون: نعم رأينا.

وقد نزل القرآن الكريم مؤيدًا لهذه المعجزة في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٣٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (٣٦٣٦).

على أنني اكتفيت هنا بذكر عدد بسيط من الأحاديث الدالة على معجزات النبي ﷺ المادية، وسنتناول طائفة منها أخرى خلال حديثنا عن السيرة النبوية، كحادثة الإسراء والمعراج، وتكثير الطعام، وغيرها.

السيرة النبوية
قبل البعثة

النسب الشريف

هو سيدنا ونبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان.

وأمه: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم، الذي هو الجد الخامس للنبي ﷺ من جهة أبيه. فأبوه وأمه من أصل واحد، يجتمعان في حكيم بن مرة.

ومن جدودهما (فهر) الذي هو قريش، الذي تنسب إليه الأمم القرشية المشهود لها بالشرف ورفعة الشأن بين العرب.

وكان لأجداده ﷺ الشأن الرفيع في قريش، فإلى بني هاشم تُنسَبُ سقاية ورفادة الحجيج، وجده هاشم إنما اسمه الحقيقي عمرو بن عبد مناف، إلا أنه لُقِّب بهاشم؛ لأنه كان يهشم الخبز من أجل صنع الثريد للحجيج. كما رُوي في كتب السير أن جده عبد المطلب هو الذي أعاد حفر بئر زمزم بعد أن اندثر لزمن

وجهل الناس مكانه، إذ أتاه هاتف في المنام يدله على مكان البئر ويأمره بحفره، فخرج هو وأولاده بمعاولهم فحفروه حتى انبثق الماء.

وهكذا، نشأ النبي ﷺ في أسرة كريمة، تدين لها قريش والعرب بالاحترام والتقدير، فخصه الله ﷻ بشرف النسب وشرف الرسالة. يقول (ﷺ): "إنَّ الله اصْطَفَى كِنانَةَ مِن ولَدِ إسْماعِيلَ، واصْطَفَى قُرَيْشًا مِن كِنانَةَ، واصْطَفَى مِن قُرَيْشٍ بَنِي هاشِمٍ، واصْطَفانِي مِن بَنِي هاشِمٍ" [رواه مسلم: ٢٢٧٦].

مولده ﷺ

تزوج عبد الله والد النبي ﷺ من أمه آمنة بنت وهب، وعمره ثماني عشرة سنة، وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسبًا وأكرمهم خُلُقًا، ولما دخل بها حملت برسول الله ﷺ، وسافر والده عبد الله عقب ذلك بتجارة له إلى الشام، فأدركته الوفاة بالمدينة " يثرب" وهو راجع، ودفن بها عند أخواله بنى عدي بن النجار، وكان ذلك بعد شهرين من حمل أمه آمنة به.

وهكذا وُلِدَ رسول الله ﷺ بمكة المكرمة يتيم الأب، وكانت ولادته في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول -على الأرجح- من عام الفيل، الذي يوافق سنة ٥٧١ من الميلاد، وهي السنة التي أغار فيها ملك الحبشة على مكة بجيش تتقدمه الفيلة، قاصدًا هدم الكعبة المشرفة، فأهلكه الله ومن معه. وارتباط ميلاده ﷺ بهذه الحادثة الجليلة يُعَد أحد أبرز إرهاصات[1] نبوته ﷺ. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

(١) الإرهاصات يُقصَد بها المقدمات والمبشرات بين يدي بعثة النبي ﷺ. ومن أبرزها: حادثة الفيل، وحادثة شق الصدر، والرؤى الصادقة التي كان يراها النبي ﷺ قبيل بعثته. تقول السيدة عائشة ﵂: (أَوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ الله ﷺ

بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ (الفيل: ١-٦).

وكانت ولادته ﷺ في دار عمه أبي طالب، في شعب بني هاشم. وسماه جده عبد المطلب "محمدًا"، فهو محمد الكثير الحمد، ومحمود في السماوات والأرض، فوافق ذلك ما جاء من البشارة في الكتب المقدسة، ففي التوراة البشارة بمُشتهى الأمم (محماد)[1]، وفي القرآن البشارة بـ (أحمد) النبي العدنان...

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وكانت قابلته[2]: الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف، وحاضنته[3]: أم أيمن بركة الحبشية، أَمَة أبيه عبد الله.

مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيا إلَّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ) [متفق عليه].

(١) انظر: اللبنة المتممة، هند الورداني، ص: ١٤٥.

(٢) القابلة: هي المرأة التي تساعد الحامل في ولادتها، يقال لها: (الداية).

(٣) الحاضنة: هي التي تقوم على حفظ الأولاد وتربيتهم.

رضاع النبي ﷺ وحادثة شق الصدر

كانت عادة أشراف العرب أن يدفعوا بأولادهم إلى نساء البادية ليرضعنهم في الفيافي؛ حتى يتربوا على النجابة والشهامة وقوة العزيمة، وقد شرف الله تعالى "حليمة" بنت أبي ذؤيب السعدية من بين العديد من النسوة بإرضاع النبي ﷺ، ورغم أنها ترددت كثيرًا في أخذ ذلك الرضيع اليتيم؛ وخشيت أن يُبخَس أجرها وهو بلا مُعيل، إلا أنها لما لم تجد في النهاية بُدًّا من أخذه؛ مخافة أن تعود خالية اليدين، وشجعها زوجها "أبو كبشة" على ذلك راجيًا أن يجعل الله لهم في هذا اليتيم الفرج والبركة، فتحقق له رجاه، وبدل الله عسرهم يسرًا، فدر ثدي حليمة بعد أن كان لبنها لا يكفي ولدها، ودرت ناقتهم حتى أشبعتهم جميعًا بعد أن كانت لا تغنيهم، ولما وصلوا به إلى أرضهم أتتهم غنمهم شباعًا غزيرة اللبن، مع أن أرضهم كانت مجدبة في تلك السنة! ففتح الله عليهم من الخير والبركات ما لم يحلموا به، واستمروا في رغد وسعة طوال مدة وجوده ﷺ بينهم.

ولما أن كَمُلَ له سنتان، فصلته حليمة من الرضاع، ثم أتت به إلى جده وأمه لتسألهما الرجوع به، فسبحان من بدل زهدها في هذا الصغير

إلى تمسك وشفقة وحرص! وأجدر به من صغير تبعته البركة حيثما حل!

وعادت حليمة السعدية بمحمد ﷺ من مكة إلى ديارها في بني سعد قريرة العين، إلا أنها لم يدر بخلدها أن بعد فترة ليست ببعيدة ستقع حادثة غريبة تضطرها إلى العودة به.

حادثة شق الصدر

فزعت حليمة ذات صباح على صوت الغلمان وهم يصرخون بأن محمدًا قد قُتِلَ، أسرعت إلى مكان الصغير والقلق يكاد يقتلها، فوجدته بخير حال، غير أنه مصفر اللون وتبدو عليه أمارات الإرهاق. والحقيقة أن ما زعمه هؤلاء الأطفال لم يكن سوى حادثة شق الصدر، وهي إحدى الإرهاصات التي توجت بها نبوة محمد ﷺ، لتهيئته للقيام بأعباء الرسالة.

روي أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَسولَ الله ﷺ أتاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وهو يَلْعَبُ مع الغِلْمانِ، فأخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عن قَلْبِه، فاسْتَخْرَجَ القَلْبَ، فاسْتَخْرَجَ منه عَلَقَةً، فقالَ: هذا حَظُّ الشَّيْطانِ منْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ من ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أعادَهُ في مَكانِه، وجاءَ الغِلْمانُ يَسْعَوْنَ إلى أُمِّه، يَعْني ظِئْرَهُ (حليمة السعدية)، فقالوا: إنَّ مُحَمَّدًا قدْ قُتِلَ، فاسْتَقْبَلُوهُ وهو مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ، قالَ أَنَسٌ: وقدْ كُنْتُ أرَى أثَرَ ذلكَ المِخْيَطِ في صَدْرِهِ ﷺ [رواه مسلم: ١٦٢].

✨ وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن حادثة شق الصدر قد تكررت مع النبي ﷺ أكثر من مرة، فكانت عند (عمر الثالثة - وعند البعثة - وفي ليلة الإسراء والمعراج)، وذلك باجتماع روايات الحادثة، إذ ورد فيها عدة أحاديث تشير إلى أزمنة مختلفة، ولا بأس من الجمع بينها وحملها على التكرار، إذ يبدو أن تلك المعجزة كانت بمثابة توطئة وتمهيد للأحداث الكبيرة في حياة النبي ﷺ.

🌿 **ومن حِكَم حادثة شق صدر النبي ﷺ:**

- إعلان أمر النبي ﷺ، وتهيؤه للعصمة والوحي منذ صغره.
- دليل على عناية الله ﷻ برسوله ﷺ وحفظه له من نزغات الشيطان.

تأييد النبي ﷺ بالمعجزات المادية؛ لتكون أقرب إلى الناس في الإيمان به وبرسالته.

وفاة أمه ﷺ وكفالة جده وعمه

لما خشيت حليمة على محمد ﷺ -بعد حادثة شق الصدر- عادت به إلى مكة، فبقي ﷺ مع أمه وجده عبد المطلب، يحفظه الله تعالى ويرعاه وينبته النبات الحسن، ثم إن أمه سافرت به إلى المدينة المنورة؛ لزيارة أخواله هناك من بني عدي بن النجار حين بلغ السادسة من عمره، إلا أنها توفيت وهي راجعة به إلى مكة بجهة "الأبواء"[1]؛ فدفنت هناك.

وعادت به إلى مكة حاضنته أم أيمن، واجتمع عليه ﷺ يتم الأب والأم، وفي سيرته العطرة سلوى لكل يتيم، إلا أن الله حافظه وناصره ومؤيده، وإن كان الله تعالى قد اختار لنبيه وحبيبه اليتم، فأكرم به من يتم! يقول ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ٦ - ١١].

ولما وصل إلى مكة كفله جده عبد المطلب بن هاشم، فحن إليه حنانًا زائدًا، وعطف عليه عطفًا بليغًا، وكانَ دائماً ما

(١) الأبواء: قرية تابعة لمحافظة رابغ الآن بالمملكة العربية السعودية، تبعد عن مكة حوالي ٢٠٠ كم.

يقول: "إن لولدي هذا شأنًا"، فكان يصطحبه معه وهو بعد طفل صغير في مجلسه، ويقعده مع سادات قريش ورؤسائهم، ثم ما لبث أن توفي جده عبد المطلب بعد سنتين فقط، وعمر رسول الله ﷺ إذ ذاك ثمان سنين.

وتركه جده في كفالة عمه أبي طالب، وكان عمه يحبه حبًّا شديدًا، وأكرمته زوج عمه (فاطمة) كرمًا واسعًا وغمرته بحنانها رغم ضيق عيشها وكثرة عيالها، فعاش في بيت عمه معززًا، وشب على الفضائل متباعدًا عن صغائر الأمور التي يشتغل بها الصبيان عادةً، وظل شاكرًا ﷺ صنيع زوج عمه معه، حتى أسمى أحب بناته على قلبه باسمها: (فاطمة).

سفره ﷺ مع عمه للتجارة وشغله بالرعي

لما أن اشتد عود النبي ﷺ وبلغ اثنتي عشرة سنة أراد أن يخرج مع عمه أبي طالب في رحلته التجارية إلى الشام، ولم يكن أبو طالب يحب أن يرد طلبًا لابن أخيه، فأخذه معه رغم صغر سنه، ولما أن وصلوا إلى "بُصرَى" وهي أول بلاد الشام من جهة بلاد العرب، قابلهم بها راهب من رهبان النصارى اسمه "بَحيرا"، كان يقيم في صومعة له هناك، وكان من دأب هذا الراهب أن يسأل قوافل العرب المارة عن ظهور نبي آخر الزمان المُخبرَ به في كتابهم؛ علّه أن يصيب بغيته فيجده ويؤمن به. ثم لما أمعن النظر في النبي وحادثه، عرف أنه النبي العربي الذي بشر به موسى و عيسى -عليهما السلام- وقال لعمه: "إنه سيكون لهذا الغلام شأن عظيم، فارجع به واحذر عليه من اليهود". فلم يمكث أبو طالب في رحلته هذه طويلاً، وعاد بمحمد ﷺ من فوره إلى مكة، ولم يخرجه معه في أي سفر مرة أخرى.

وبقي النبي ﷺ في مكة مثالًا للشرف والكمال، محفوظا من معايب أخلاق الجاهلية، وعاملًا برعاية الأغنام، وهي المهنة التي

ارتضاها الله ﷻ لأنبيائه - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -. يقول النبي محمد ﷺ: (ما بَعَثَ الله نَبِيًّا إلَّا رَعَى الغَنَم) [البخاري: ٢٢٦٢]؛ فإنها مما يحمل صاحبها على أخذ النفس بالتَّواضع، وتصفَّية القلب بالخَلْوة، والتعود على الصَّبر والشَّفقة والرَّحمة؛ فكانت هذه المهنة من أسس تهيئة الأنبياء للقيام بأعباء الرسالة وسياسة أقوامهم بالرحمة واللين.

وكان ﷺ شهمًا شجاعًا، حضر مع أعمامه حرب الفجار، وهي حرب قامت بين قبيلة كنانة وحليفتها قريش من ناحية، وبين قيس من الناحية الأخرى. وقد ابتدأت هذه الحرب فيما بين مكة والطائف، ثم تفاقمت حتى وصلت إلى الكعبة المشرفة، فاستحلت حرمات هذا البيت المقدس العتيق؛ ولذلك سميت حرب الفجار.

واشتُهِرَ محمد ﷺ في قومه بـ (الصادق الأمين)، وعُرِفَ بالنزاهة ومساعدة الضعفاء والمساكين، فحضر مع قريش (حلف الفضول) وسنه إذ ذاك عشرون سنة، وهو حِلف تعاهد فيه رؤساء قريش على نصرة كل مظلوم دخل بمكة. وروي أن النبي ﷺ قال عن ذلك الحلف: (شَهِدْتُ حِلفًا في دار ابنِ جُدْعانَ: بَني هاشم، وزُهْرةَ، وتَيْمٍ، وأنا فيهم، ولو دُعيتُ به في الإسلام لأجَبْتُ)[1].

(١) أخرجه شعيب الأرناؤوط في تخريج مشكل الآثار، برقم: (٥٩٧١).

ولم يعرف النبي ﷺ عبادة الأوثان، فلم يحلف بها يومًا، ولم يحضر لها عيدًا، ولم يشرب الخمر قط مع شيوعه في قومه، بل كان ﷺ يتبع قبل نبوته ما ثبت من الحنيفية السمحاء، ملة أبي الأنبياء إبراهيم -عليه السلام-، وحُبِّب إليه ﷺ الخلوة والعزلة منذ طفولته إلى أن بعثه الله ﷻ بالحق رحمةً للعالمين، فكان يختلي بغار حراء يتفكر ويتعبد، ثم يطوف بالكعبة.

زواجه بالسيدة خديجة رضي الله عنها

كانت خديجة بنت خويلد -من بني أسد بن عبد العزى بن قصي- امرأة ذات حَسَبٍ ومال وجمال، يتشوف كل رجال قومها للزواج بها، وكانت رضي الله عنها تتاجر في مالها بطريق المضاربة مع من تثق به من الرجال، فلما أن سمعت بأمانة رسول الله ﷺ وصدقه، بعثت إليه من يعرض عليه أن يسافر بمال لها إلى الشام، على أن تعطيه من الربح أكثر مما كانت تعطي غيره، فقبل ذلك رسول الله ﷺ، وسافر مع غلامها ميسرة، فباع واشترى وعاد بربح عظيم.

وقد شاهد ميسرة في هذه الرحلة كثيرًا من بركات النبي ﷺ وإكرام الله تعالى له، فعاين فضائل صدقه وأمانته، فلمّا عاد لمكة أخبر سيدته بما رأى من حُسنِ طالع ذلك الشاب وكريم أخلاقه، فازداد إعجاب خديجة به ﷺ ومال إليه قلبها.

فتشجعت خديجة وبعثت إلى محمد ﷺ بمن يحدثه في أمر الزواج، ووقع اختيارها على صديقتها نفيسة بنت منية لتبلغه رسالةً شفهية فحواها: "يا ابن عم، إني قد رغبت فيك

لقرابتك وأمانتك، وصدق حديثك"، فمال قلب النبي ﷺ إلى حيث مال قلب خديجة، وعرض الأمر على أعمامه فوافقوه على الزواج بها، وتوجهوا معه إليها وأتموا عقد الزواج بينهما، وتولاه عنها عمها عمرو بن أسد، كما تولاه عن النبي ﷺ عمه أبو طالب، وكان صداقها عشرين بَكرة -وهي الفتيُّ من الإبل-، وسنه ﷺ يومئذ خمس وعشرون سنة، وقيل إن خديجة كان لها أربعون سنة يومئذ، على خلاف في أقوال العلماء.

وظل النبي ﷺ وفيًّا لخديجة حتى آخر لحظة في عمره، فلم يتزوج ﷺ عليها طول حياتها، ولم يحب أحدًا من زوجاته مثلما أحبها، حتى إن السيدة عائشة ﵂ لتغار منها وهي ميتة، ولم ترها من قبل ولم تعرفها. تقول عائشة ﵂: (ما غِرْتُ على أَحَدٍ مِن نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، ما غِرْتُ علَى خَدِيجَةَ، وما رَأَيْتُهَا! ولَكِنْ كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، ورُبَّما ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّما قُلتُ له: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلَّا خَدِيجَةُ، فيَقولُ: إنَّهَا كَانَتْ، وكَانَتْ، وكانَ لي منها ولَدٌ) [متفق عليه].

وقد جاءت خديجة ﵂ بأولاد النبي ﷺ كلهم -عدا إبراهيم-، وأولهم القاسم -وبه يُكَنَّى ﷺ- وتليه زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم عبد الله.. وقد ماتوا كلهم

في حياة رسول الله ﷺ خلا فاطمة رضي الله عنها، التي توفيت بعد ممات النبي ﷺ بستة أشهر.

وكانت رضي الله عنها متزوجة برجلٍ قبل النبي ﷺ اسمه أبو هالة، ولها منه ولد اسمه هند، فكان هند ربيب رسول الله ﷺ.

شهوده ﷺ بناء الكعبة

حين بلغ النبي ﷺ خمسًا وثلاثين سنة، نزل سيل عظيم بمكة، أثر في جدران الكعبة فأوهنها على ما كانت عليه من الضعف بسبب حريق كان قد أصابها من قبل، فاجتمعت قبائل قريش وشرعوا في هدمها وبنائها بناءً مرتفعًا، وكان الأشراف منهم يتسابقون في نقل الحجارة وحملها على أعناقهم. فكان رسول الله ﷺ فيمن يحمل الحجارة وينقلها إلى مكان البناء، مع عمه العباس رضي الله عنه.

ولّما تم بناء الكعبة وأرادت قريش رفع الحجر الأسود في موضعه اختلف أشرافهم فيمن يضعه، وكادو يقتتلون، فأشار عليهم أبو أمية الوليد بن المغيرة بأن يُحكِّموا بينهم أول قادم من باب الصفا، فكان أول داخل هو رسول الله ﷺ. فارتاحوا جميعًا إليه لما يعهدونه من أمانته، وحكمته، وصدقه، وإخلاصه للحق.. وقالوا: (هذا الأمين رضيناه). فلما وصل إليهم وأخبروه الخبر، بسط رداءه وتناول الحجر فوضعه فيه بيده، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بطرف من الرداء ثم ارفعوه جميعًا. ففعلوا حتى وصلوا به إلى موضعه. فوضعه فيه بيده ﷺ، وبذلك

انتهت هذه الأزمة التي كادت تؤدي إلى الحرب والقتال، فكان ﷺ بركة على قومه.

البعثة والمرحلة المكية

بدء الوحي

الوحي: يُقصَد به ما يُلقَى إلى الأنبياء من عند الله تعالى، وله عدة مراتب وكيفيات، منها:

١- الرؤيا الصادقة: فرؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حق، وهي أول ما بُدئ به لسيدنا محمد ﷺ. تقول السيدة عائشة ﵂: (أَوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ الله ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيا إلَّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ) [متفق عليه].

٢- أن يلقي المَلَك في روع النبي وقلبه، ما يوحي به الله إليه، من غير أن يرى له صورة. ومثاله: غالب سنة النبي ﷺ. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ - ٤]. وكما أومأ ﷺ بإصْبَعِهِ إلى فِيهِ، آمرًا عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ أن يكتب ما يسمعه منه، قائلًا: (اكتُبْ؛ فوالذي نفْسي بيدِهِ، ما يخرُجُ منه إلَّا حقٌّ)[1].

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٦)، وأحمد (٦٨٠٢) واللفظ له.

٣- أن يأتي الملك إلى النبي، متمثلاً بصورة رجل، فيخاطب النبي حتى يأخذ عنه ما يقول له ويوحي به إليه. وفي هذه الحالة لا مانع من أن يراه الناس أيضًا. ومثاله: ما ورد في حديث الإسلام والإيمان والإحسان الشهير، حين أتى جبريل يعلم الصحابة أمر دينهم(١). وورد كذلك في بعض كتب السير أن جبريل عليه السلام كان يأتي في صورة الصحابي دحية الكلبي رضي الله عنه.

٤- أن يأتي الملك في صورته الأصلية التي خلقها الله تعالى عليها ويراه النبي كذلك ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه. ومثاله: ما حدث في مبتدأ الوحي مع رسول الله ﷺ.

---

(١) عن عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ قالَ: بيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ الله ﷺ ذاتَ يَوم، إذْ طَلَعَ عليْنا رَجُلٌ شَدِيدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَدِيدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عليه أثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حتَّى جَلَسَ إلى النبيِّ ﷺ، فأسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، ووَضَعَ كَفَّيْهِ علَى فَخِذَيْهِ. وَقالَ: يا مُحَمَّدُ أخْبِرْنِي عَنِ الإسْلامِ، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: الإسْلامُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلَهَ إلَّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله ﷺ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبِيلًا، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فَعَجِبْنا له يَسْأَلُهُ، ويُصَدِّقُهُ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإيمانِ، قالَ: أنْ تُؤْمِنَ بالله، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، والْيَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإحْسانِ، قالَ: أنْ تَعْبُدَ الله كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قالَ: ما المَسْؤُولُ عَنْها بأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ قالَ: فأخْبِرْنِي عن أمارَتِها، قالَ: أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها، وأنْ تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلُونَ في البُنْيانِ، قالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قالَ لِي: يا عُمَرُ أتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلتُ: اللهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: "فإنَّه جِبْرِيلُ أتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ"[رواه مسلم: ٨].

٥- وأحيانًا يأتي المَلَك مخاطبا النبي بصوت وكلام مثل صلصلة الجرس، وهذه الحالة كانت أشد أحوال الوحي على النبي ﷺ، وكان نبينا عندما يأتيه الوحي بهذه الكيفية، يعرق حتى يسيل العرق من جبينه في اليوم الشديد البرد، وإذا أتاه وهو راكب، ثقلت ناقته حتى تبرك به، وهذه الكيفية نزل بها غالب القرآن الكريم. عن الحارثَ بنَ هِشام رضي الله عنه أنه سَأَلَ رَسولَ الله ﷺ فقالَ: يا رَسولَ الله، كَيفَ يَأْتيكَ الوَحْيُ؟ فقالَ رَسولُ الله ﷺ: أحْيانًا يَأْتِيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وهو أشَدُّهُ عَلَيَّ، فيُفْصَمُ عَنِّي وقدْ وعَيْتُ عنْه ما قالَ، وأَحْيانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فيُكَلِّمُني فأعي ما يقولُ - وهي الكيفية السابقة التي ذكرناها -. قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا. [متفق عليه].

٦- وقد يكون الوحي بكلام الله تعالى للنبي، بدون واسطة الملك، بل من وراء حجاب، كما حصل لنبينا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وكما كلم الله ﷻ موسى تكليماً.

وقد جمع الله تعالى هذه الكيفيات جميعها في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

وأول ما بديء به سيدنا محمد ﷺ من الوحي -كما أشرنا آنفًا- الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا ووقعت بحذافيرها.

فلما قضى الله ﷻ بإرساله إلى الخلق أجمعين، وذلك حين بلغ سنه ﷺ أربعين سنة -وهو سن الكمال-، أرسل إليه روح القدس الأمين جبريل عليه السلام بصورته وهيئته وهو في خلوته يتعبد بغار حراء، وذلك في شهر رمضان من تلك السنة المباركة، ففاجأه جبريل بقوله: أقرأ، فقال ﷺ: ما أنا بقارئ؛ لأنه ﷺ كان أميًّا، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فغطه جبريل عليه السلام غطًا شديدًا، ثم أرسله فقال: اقرأ؟ فقال: ما أنا بقارئ. ثم غطه وأرسله فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]. فلما رددها رسول الله ﷺ انصرف عنه جبريل.

وانطلق النبي ﷺ إلى أهله ترجف بوادره، قد أدركه الفزع من هول ما رأى، وأخذ يصيح بهم قائلاً: "زملوني زملوني". ولما ذهب عنه ﷺ الروع أخبر زوجته الحبيبة خديجة رضي الله عنها بما كان، فلم تتردد للحظة ولم تهتز، بل بادرته قائلة: "أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". فكانت له رضي الله عنها نِعمَ المعين على الحق، وكانت أول من آمن به.

ثـم أرادت رضي الله عنها أن تثبـت قلـب زوجهـا، فذهبـت بـه ﷺ إلى ابـن عمهـا ورقـة بـن نوفـل، وكان شـيخًا كبـيرًا عـلى النصرانيـة، فقالَـتْ لـه خَدِيجَـةُ: يـا ابْـنَ عَـمِّ، اسْـمَعْ مِـنَ ابْـنِ أخيـكَ، فقـالَ لـه ورَقَـةُ: يـا ابْـنَ أخِـي مـاذا تَـرَى؟ فأخْـبَرَهُ رَسـولُ الله ﷺ خَـبَرَ مـا رَأَى، فقـالَ لـه ورَقَـةُ: هـذا النَّامُـوسُ الـذي نَـزَّلَ الله عـلَى مُوسَـى، يـا لَيْتَنِـي فيهـا جَذَعًـا، لَيْتَنِـي أكُـونُ حَيًّـا إذْ يُخْرِجُـكَ قَوْمُـكَ، فقـالَ رَسـولُ الله ﷺ: أوَ مُخْرِجِـيَّ هُـمْ؟! قـالَ: نَعَـمْ، لَمْ يَـأْتِ رَجُـلٌ قَـطُّ بمِثْـلِ مـا جِئْـتَ بـه إلَّا عُـودِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِـي يَوْمُـكَ أنْصُرْكَ نَـصْرًا مُـؤَزَّرًا. ثُـمَّ لَمْ يَنْشَـبْ ورَقَـةُ أنْ تُـوُفِّيَ، وفَـتَرَ الوَحْـيُ.

عـاد رسـول الله ﷺ مـن لقائـه مـع ورقـة بـن نوفـل وقـد ثبـت قلبـه وتعـزز يقينـه، وقـرَّر أن يذهـب مـرَّة ثانيـة إلى الغـار لعلـه أن يُقابـل جبريـل عليه السلام فيسـمع منـه أوامـر ربِّـه. وبالفعـل عـاد ﷺ إلى الغـار، وبقـي فيـه عـدَّة أيـام؛ ولكـن لم يـأتِ جبريـل عليه السلام! فحـزن رسـول الله ﷺ أشـد الحـزن لذلـك.

وبعـد أن قـضى ﷺ جـواره في غـار حـراء، وبينـما هـو في طريقـه بـين أوديـة مكـة، إذ سـمع صوتًـا يناديـه، فرفـع بـصره للسـماء، فـإذا هـو جبريـل عليه السلام قاعـد عـلى عـرش بـين السـماء والأرض، فغلـب عـلى النبـي ﷺ طبيعتـه البشريـة، وهالـه مـا رأى مـن طبيعـة جبريـل المَلَكيـة، فقفـل راجعًـا إلى أهلـه وهـو يقـول: "دثـروني دثـروني"، فجـاءه جبريـل بالوحـي، فقـال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [المدثر: ١-٧]

وكان ذلك إيذانًا ببدء أعظم رسالة في تاريخ البشرية.. رسالة الإسلام الخاتمة

الدعوة السرية

بعد نزول آيات سورة المدثر انتفض النبي ﷺ للدعوة إلى الله تعالى ورسالة الإسلام تحت غطاء السرية، وكان طبيعيًّا أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب الناس إليه.

● أما الحكمة من ابتداء الدعوة بصورة سرية؛ فلأن أهل مكة كانوا قومًا غلاظًا جفاة، متعصبين لعبادة الأوثان التي يأتي إليها العرب من كل حدب وصوب لزيارتها حول الكعبة، وهذا بالطبع مما يخدم مصالح قريش التجارية ويجعل لهم الزعامة على كافة القبائل، فإن هم علموا بدعوة النبي ﷺ أخذتهم الأنفة والعزة، وقد يؤدي ذلك لشن الحروب وإراقة الدماء وقتل الإسلام في مهده، والدعوة لم تزل غضة طرية لم تستوِ على سوقها، ولم يكن له ﷺ إذ ذاك من ناصر ولا معين، ومن سنة الله تعالى في خلقه ربط الأسباب بمسبباتها؛ ولذلك نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن الجهر بالدعوة قبل أن يهيئ له أسباب التدافع والظفر على من يناوؤه.

● وكان أول من بادر إلى الإسلام: خديجة بنت خويلد زوجته ﷺ، وابن عمه علي بن أبي طالب، وعمره يومئذ عشر

سنين، وزيد بن حارثة الذي كان مملوكًا للسيدة خديجة، ثم وهبته للنبي ﷺ، فأعتقه وتبناه -قبل تحريم التبني-، وأم أيمن حاضنة النبي ﷺ، والتي تزوجها زيد فيما بعد. وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان صديقًا للنبي ﷺ قبل النبوة، وقد قال النبي ﷺ في حقه: "ما دعوت أحدًا إلى الإسلام، إلا كانت له كبوة، غير أبي بكر". وكان رضي الله عنه عظيماً في قومه، يثقون برأيه، فأسلم على يديه العديد من الرجال، وأجاب دعوته: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، فأتى بهم إلى النبي ﷺ جميعًا فأسلموا. ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد العدوي، وأبو سلمة المخزومي، وخالد بن سعيد بن العاص، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبيد الله، والأرقم بن أبي الأرقم، وكل هؤلاء من بطون قريش. ومن غيرهم: صهيب الرومي، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم.

الجهر بالدعوة

بعد أن مضى على الدعوة السرية ثلاث سنين، وكثر دخول الناس في دين الإسلام من أشراف القوم ومواليهم رجالًا ونساءً، فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس، وأمر الله تعالى رسوله بالجهر بالدعوة، فنزل عليه قوله ﷻ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]

فبادر رسول الله ﷺ بالامتثال لأمر ربه، وأعلن ﷺ لقومه أمر الدعوة، وحرص على البدء بعشيرته؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فصعد ﷺ على جبل الصفا، ونادى في بطون قريش: يا بَنِي فِهْر، يا بَنِي عَدِيٍّ - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَخْرُجَ أرْسَلَ رَسولًا لِيَنْظُرَ ما هُوَ، فَجَاءَ أبو لَهَب وقُرَيْشٌ، فَقالَ ﷺ: (أرَأَيْتَكُمْ لو أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلًا بالوَادِي تُرِيدُ أنْ تُغِيرَ عليْكُم، أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟) قالوا: نَعَمْ، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلَّا صِدْقًا، قالَ: (فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)، فَقالَ أبو لَهَبٍ: تَبًّا لكَ سَائِرَ اليَومِ، ألهذا جَمَعْتَنَا؟ فنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [البخاري:

٤٧٧٠]... ومـن هنـا سـتبدأ مرحلـة طويلـة مـن المنافحـة والصـدام بـين الحـق والباطـل.

قريش ترفض دعوة النبي

لم يكد النبي ﷺ يجهر بدعوته كما أمره ربه حتى انتفضت صناديد قريش لمحاربة دعوة الإسلام والصد عن سبيل الله، وعلى الرغم من تسليمهم بصدق النبي ﷺ، وإقرارهم ببلاغة القرآن المُنَزَّل عليه ﷺ، والذي تحداهم مرة بعد أخرى، واستنفر آخر ذرة كرامة لديهم لنزاله، فعجزوا عن مجاراته، ثم قطع عليهم كل سبيل، فأعلنها صراحةً: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]. ورغم كل ذلك، إلا أنهم جحدوا الحق كفرًا وعنادًا؛ حرصًا على مصالحهم الدنيوية وهيبتهم أمام العرب، وكذلك زين لهم شيطانهم! ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص: ٥٧].

⛔ ومن السياسات التي استخدمتها قريش لمحاربة دعوة النبي ﷺ:

١- سياسة التفاوض:

فطلبوا من أبي طالب أن يكف ابن أخيه عن دعوته أو يسلمهم إياه، فرفض أبو طالب ذلك.

٢- سياسة الحرب الإعلامية:

فأشاعوا بين الوافدين إلى مكة أن محمدًا ﷺ ساحر وشاعر ومجنون؛ ليبغضوا إليهم السماع منه. فقالوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾[الأنبياء: ٥]، فاستكبروا عن شهادة التوحيد، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٦].

٣- سياسة الإيذاء:

بإيذاء النبي ﷺ وتعذيب أصحابه ﷺ؛ فطرحوا على ظهر النبي ﷺ وهو يصلي بصحن الكعبة سلا الجزور، وخنقه الملعون عقبة بن أبي معيط بردائه خنقًا شديدًا، وطعن أبو جهل سمية ﷺ في قُبُلِها، فكانت أول شهيدة في الإسلام، وعُذِّب بلال وصهيب وخباب وغيرهم من المستضعفين.. فانظر كيف قاسى النبي ﷺ وأصحابه حتى يصل إلينا هذا الدين!

٤- سياسة الإغراء:

بإغراء النبي ﷺ بالمُلك والمال والنساء على أن يرجع عن دعوته، لكن حاشاه ﷺ أن يقبل ذلك. رُوِيَ أن قريشًا أَرْسَلَتْ عُتْبَةَ بنَ ربيعةَ - وهو رجلٌ رَزِينٌ هادئٌ - فذهب إلى رسول الله ﷺ يقولُ: يا ابنَ أخي، إنك منا حيثُ قد علمتَ من المكانِ في النسب، وقد أَتَيْتَ قومَك بأمرٍ عظيم فَرَّقْتَ به جماعتَهم، فاسمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عليك أمورًا لعلك تقبلُ بعضَها. إن كنتَ إنما تريدُ بهذا الأمرِ مالًا جَمَعْنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرَنا مالًا. وإن كنتَ تريدُ شَرَفًا سَوَّدْناكَ علينا فلا نَقْطَعُ أمرًا دونَك. وإن كنتَ تريدُ مُلْكًا مَلَّكْناكَ علينا. وإن كان هذا الذي يأتيكَ رئيًا تَرَاه لا تستطيعُ رَدَّه عن نفسك، طَلَبْنا لك الطِّبَّ، وبَذَلْنا فيه أموالَنا حتى تَبْرَأَ. فلما فرَغَ قولُه تلا رسولُ الله ﷺ صَدْرَ سُورَةِ فُصِّلَتْ : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ (١).

(١) أخرجه البيهقي في ((دلائل النبوة)) (٢/ ٤٠٢)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣٨/ ٢٤٦) من حديث محمد بن كعب القرظي.

٥- سياسة التحايل:

فعرضوا عليه ﷺ أن يشاركوه في عبادته، ويشاركهم في عبادتهم، فقالوا: "يا مُحَمَّدُ، هَلُمَّ فاتَّبِعْ دِينَنا ونَتَّبِعْ دِينَكَ، تَعْبُدُ آلِهَتَنا سَنَةً ونَعْبُدُ إلَهَكَ سَنَةً، فَإنْ كانَ الَّذي جِئْتَ بِهِ خَيْرًا مِمّا بِأيْدِينا قَدْ شَرِكْناكَ فِيهِ، وأخَذْنا بِحَظِّنا مِنهُ، وإنْ كانَ الَّذي بِأيْدِينا خَيْرًا مِمّا في يَدَيْكَ قَدْ شَرِكْتَنا في أمْرِنا وأخَذْتَ بِحَظِّكَ". فَقالَ: "مَعاذَ اللهِ أنْ أُشْرِكَ بِهِ غَيْرَهُ". فَأنْزَلَ الله تَعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إلى آخِرِ السُّورَةِ. فَغَدا رَسُولُ الله ﷺ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ وفِيهِ المَلأُ مِن قُرَيْشٍ، فَقَرَأها عَلَيْهِمْ حَتّى فَرَغَ مِنَ السُّورَةِ، فَأيِسُوا مِنهُ عِنْدَ ذَلِكَ[1].

٦- سياسة التعجيز:

بطرح أسئلة التعنت والعناد على النبي ﷺ، ومثاله: سؤالهم عن موعد الساعة. قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٥]. أو سؤالهم أن يوقع الله بهم العذاب إن كان ما جاء به محمد ﷺ الحق! ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي.

فلما لم تفلح كل تلك الوسائل ازدادت قريش في طغيانها، وعاثت في إفسادها، حتى ضاق الأمر على المسلمين، واستأخروا نصر الله؛ لشدة ما لاقوه. يقول خباب بن الأرت ﷺ: (شَكَوْنا إلى رَسولِ الله ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ، فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: "قَدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللهَ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ") [البخاري: ٣٦١٢]... فكان اهتمام رسول الله ﷺ بتربية نفوس وصناعة الإنسان، فحرص على غرس بذور العقيدة في قلوب الصحابة، وتربيتهم على الصبر ومكارم الأخلاق والتضحية في سبيل الله... وبهؤلاء الرجالات ستقوم دولة الإسلام في المدينة... وبأمثالهم تقوم دولة الإسلام في كل زمان ومكان.

الهجرة الأولى للحبشة

لما ازداد أذى قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه، ورأى الله ﷻ من عباده اليقين والثبات رغم ما حاق بهم من الأذى والعذاب، جعل الله تعالى لهم فرجًا ومخرجًا، فأَذِن لهم بالهجرة إلى الحبشة؛ حيث يوجد ملك عادل، لا يُظلَم عنده أحد، وهو "النجاشي"، وبإمكانهم هناك أن يأمنوا على أنفسهم ودينهم.

فهاجر من الصحابة عشرة رجال، وخمس نسوة، في مقدمتهم ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ.

وفي ذلك الوقت وقع إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ومن بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فتنفس المسلمون في مكة الصعداء، إذ إنهما من أشرف رجالات قريش وأشدهم بأسًا، ولا ريب أن الإسلام يُعَز بإسلامهما، وتفاءل الجميع على كافة المستويات، لدرجة أن مهاجري الحبشة عادوا أدراجهم فور سماعهم بإسلام الرجلين، ولم يلبثوا هنالك سوى ثلاثة أشهر. وبالفعل فإن قريشًا خففت كثيرًا من وطأة عنفها، إلا أنها استطاعت أن تواجه إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما بتدابيرَ أخرى جديدة يتجلى فيها المكر والدهاء، فأشهرت سلاح "المقاطعة الاقتصادية".

المقاطعة الاقتصادية والهجرة الثانية للحبشة

بعد إسلام حمزة وعمر ﷺ اتفق كفار قريش على مقاطعة بني عبد مناف، وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم، على ألا يعاملوهم ببيع ولا شراء ولا زواج حتي يسلموا إليهم محمدًا ليقتلوه، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة؛ توكيدًا بذلك على أنفسهم، فالتجأ بنو عبد مناف مسلمهم وكافرهم إلى أبي طالب، ودخلوا معه في شِعبه، فحاصرهم فيه كفار قريش مدة تقرب من ثلاث سنين، حتى نفد ما عندهم من الزاد، واضطروا لأكل أوراق الأشجار.

فلمّا ضاقت بالمسلمين السبل أشار رسول الله ﷺ على أصحابه بالهجرة ثانية إلى الحبشة، فهاجر إليها منهم ثلاثة وثمانون رجلاً من بطون قريش، ومعهم من نسائهم سبع عشرة امرأة، ومن أخذوا من أولادهم.

وأكرمهم النجاشي مثلما أكرمهم في المرة الأولى، وآمنهم على عبادتهم، ومكّنهم من إعلانها، فاغتاظت قريش لذلك،

وأرسلت إلى نجاشي الحبشة وفدًا يحمل إليه وإلى بطارقته الهدايا برئاسة عمرو بن العاص -قبل إسلامه-، وكان داهية من دواهي العرب؛ وذلك ليرد هؤلاء المهاجرين، غير أن النجاشي لم يرضَ بذلك، بل استحضر المهاجرين إليه، وسألهم عما هم عليه من الدين، فكلمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبان له ما كانت عليه حالتهم قبل الإسلام، وما جاءهم به الإسلام من ترك عبادة الأوثان، وإفراد الله تعالى بالعبادة، وما أرشدهم إليه من مكارم الأخلاق، وقرأ عليه جعفر أول سورة "مريم"، فقال النجاشي: إن هذا مثل الذي جاء به المسيح.

فلمّا رأى عمرو رضا النجاشي عن المسلمين أراد إثارة الوقيعة بينهم، فأتى بطارقة النجاشي في غفلة منه، وقدم إليهم الهدايا، ثم حدثهم عن قول الإسلام في المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وسعى في تحريضهم على المهاجرين، وكان النجاشي وقومه على النصرانية، فلما كان اليوم التالي جعل البطارقة يألبون النجاشي على المسلمين، فأرسل إليهم ليتبين منهم، فلما وقفوا بين يديه سألهم عما يقوله الإسلام في حق المسيح، فقال جعفر رضي الله عنه: نقول فيه الذي جاء به نبينا "هو عبد الله، ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول"، فقال النجاشي: إن عيسى بن مريم لا يزيد على ذلك. ثم قال للمهاجرين: اذهبوا فأنتم آمنون. ورد على وفد قريش هداياهم. فرجعوا إلى قومهم خائبين!

ثم لّما كان رأس ثلاث سنين من هذه المقاطعة المشئومة قيّض الله ﷻ لنقض الصحيفة الظالمة أُناسًا من أشراف قريش، كانت قد أخذتهم الرحمة ببني هاشم وتضامنوا معهم، وهم: هشام بن عمرو الهاشمي، وزهير بني أبي أمية المخزومي، والمطعم بن عدي، وأبي البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود. فأجمعوا أمرهم ليلاً على نقض الصحيفة.

فلما كان النهار غدا زهير إلى الناس في أنديتهم وقال: "أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة". فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد: "كذبت والله لا تشق". فقال زمعة بن الأسود: "أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كُتِبت"، فقال أبو البختري: "صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به". فقال المطعم بن عدي: "صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ من الله منها ومما كتب فيها". وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تُشوورَ فيه في غير هذا المكان. وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

فقام المعطم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم).

عام الحزن

بعد انتهاء المقاطعة الاقتصادية في آخر السنة العاشرة من البعثة، حضرت أبا طالب عم النبي ﷺ الوفاة، فعرض رسول الله ﷺ عليه الإسلام، لكن صناديد قريش لم يفوتوا تلك اللحظة الثمينة، فما زالوا ملتفين حول سرير أبي طالب يدعونه إلى التمسك بدين آبائه حتى مات على الشرك، فحزن النبي ﷺ لذلك أشد الحزن، وأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

ثم لم تلبث السيدة خديجة ﵂ أن توفيت في نفس العام بعد وفاة أبي طالب، فتضاعف الأسى والحزن على رسول الله ﷺ بفقد هذين الحبيبين، اللذين كانا له بمثابة الأمان والسند، ودعامة أساسية في ضمان سير الدعوة. كان أبو طالب درعه الذي يدفع عنه أذى القوم، وكانت خديجة ﵂ سكنه الذي يخفف عنه المحن والأزمات. ولم يفوت كفار قريش الفرصة، فتجرءوا على رسول الله ﷺ، ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون به في حياة أبي طالب.

كانت فترة عصيبة في حياة رسول الله ﷺ، قام فيها وحيدًا ليواجه الكثير من المشكلات والمصاعب، لا ناصر له إلا الله ﷻ. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء: ٤٥].

محنة الطائف

لما تجرأت قريش على النبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها، سعى رسول الله ﷺ لإيجاد مركز جديد للدعوة، فخرج ﷺ ومعه زيد بن حارثة في رحلة إلى الطائف؛ في محاولةٍ لطلب النصرة من ثقيف.

ولمّا وصل رسول الله ﷺ إلى الطائف اتجه إلى سادة ثقيف وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو، لكنهم لم يستجيبوا لدعوته وأساءوا الأدب، فلمّا يئس ﷺ من خيرهم انصرف عنهم قائلاً: (إن فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني). لكنّ بني عمرو كانوا لئامًا، فلم يكتموا أمر النبي ﷺ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمون عراقيبه بالحجارة، حتى دمت قدماه وسال دمه الزكيّ ﷺ على أرض الطائف، ومازالوا به وبزيد بن حارثة حتى ألجؤوهما إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن لجأ رسول الله ﷺ إلى ربه بالدعاء: (اللهمّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي، وَقِلّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ، يَا أَرْحَمَ

الرَّاحِمِينَ! أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ). فأرسل لله تعالى لنبيه ملك الجبال ليسأله إن شاء أن يطبق عليهم الأخشبين، لكنَّ النبي ﷺ أخذته الرحمة والشفقة بهم، وقال: (بل أرجو أن يخرج لله من أصلابهم من يعبد لله وحده لا يشرك به شيئًا).

وعلمت قريش بما حدث للنبي ﷺ في الطائف، فرقصت قلوبهم فرحًا، وكره رسول الله ﷺ أن يدخل مكة عليهم مهزومًا، فاستجار بالمطعم بن عدي فأجاره، ودخل ﷺ مكة والمطعم وأولاده يحرسونه بالسلاح حتى وصل بيته، ولم تستطع قريش حينئذ أن تحرك ساكنًا.

الإسراء والمعراج

ما جعل الله تعالى محنة إلا وصيّر في طياتها المنحة، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥ - ٦]، فبعد عام الحزن ومحنة الطائف، أراد الله ﷻ أن يكرّم نبيه ويسري عنه، فكان الإنعام برحلة الإسراء والمعراج.

أما الإسراء: فهو توجهه ﷺ من الكعبة المشرفة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس؛ ليريه الله ﷻ من عجائب آياته وعظيم قدرته ما يثبت قلبه ويشفي من الحزن قلبه. يقول الله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ركب رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى البراق، وهو دابة ليست كدوابنا، وإنما هو مخلوق من مخلوقات الله سخره ﷺ لرسوله إكرامًا وتعظيماً. يقول النبي ﷺ: (أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ، طَوِيلٌ، فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ، أي أَنَّ خُطْوَتَهُ الواحِدَةَ بِمِقْدارِ ما يَنْتَهي إليه

بَـصَره، وهـي كنايـة عـن شـدة سرعـة تلـك الدابـة)[1]، فانطلـق بالنبـي ﷺ مـن المسـجد الحـرام بمكـة إلى بيـت المقـدس في ليلتـه، ودخـل ﷺ المسـجد الأقـصى، حيـث التقـى هنـاك بأنبيـاء الله عليهم السلام، وصـلى بهـم إمامًـا.

وأمـا المعـراج: فهـو صعـود النبـي ﷺ إلى السـماوات العـلا عقـب رحلـة الإسراء، وكان كلـما وصـل ﷺ إلى طبقـة مـن طبقـات السـماء اسـتفتح لـه جبريـل عليه السلام، فيقـال: مـن أنـت ومـن معـك؟ فيقـول: "جبريـل ومحمـد"، فيقـال: أوقـد بعـث إليـه؟ فيقـول: نعـم. فيُفتَـح لهـما مـع الترحيـب والدعـاء بالخـير، حتـى انتهيـا إلى السـماء السـابعة، ليتوجـه بعدهـا رسـولنا الكريـم ﷺ إلى سـدرة المنتهـى، حيـث كلمـه ربـه، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجـم: ١٠ - ١٨]. وهنـاك شـاهد مـا لا تـدرك العقـول البشريـة كنهـه، وأطلعـه الله عـلى منـازل الـدار الآخـرة، فـرأى الجنـة ورأى النـار، وافـترض ﷻ عليـه وعـلى أمتـه ﷺ في تلـك الليلـة الصـلاة.

(١) متفق عليه.

ثم عاد ﷺ إلى مكة بعد تلك الرحلة المباركة من ليلته، فلما أصبح ذهب إلى قريش، فأخبر القوم بما رآه، فكذّب من كذب، حتى لقد ارتد بعض ضعاف القوم عن الإسلام! ولم يجد رؤساء قريش بُدًّا من أن يمتحنوه في بيت المقدس، فوصفه لهم كما هو، ثم إنهم سألوه عن عير لهم في الطريق، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، ووقت قدومها، فكان كما قال، ومع ذلك لم تردعهم تلك الأدلة الظاهرة عن عنادهم وكفرهم، وسعى بعضهم إلى أبي بكرٍ الصديق ﷺ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسريَ به الليلة إلى بيت المقدس، فقال ﷺ: "لئن كان قال ذلك لقد صدق"، قالوا: أوتصدقه؟ قال: "نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة". فأطلق على أبي بكر منذ تلك اللحظة لقب (الصدّيق).

بيعة العقبة الأولى

لم يمل النبي ﷺ من عرض نفسه على القبائل في سائر مناسبات العرب وتجمعاتهم، داعيًا إلى الإسلام، وطالبًا للنصرة حتى يتمكن من أن يؤدي رسالة ربه. فكان يخرج ﷺ إليهم في موسم الحج الذي تجتمع فيه قبائل العرب، وفي أسواق الشعر التي يقصدونها للمفاخرة، لكنهم لم يكونوا يستجيبوا له، حتى أتى وفد من الخزرج في موسم الحج، وكانوا ستة رجال، فقبلوا ما عرضه رسول الله ﷺ عليهم من الإسلام، ورجوا أن يجمع الله به قومهم في يثرب، بعد أن مزقت حرب (بُعاث)[1] شملهم، واستحكمت العداوة بين الأوس والخزرج، فعاهدوا النبي ﷺ على دعوة قومهم إلى الإسلام على أن يقابلوه العام القادم.

فلما كان العام المقبل، قدم وفد من يثرب يتضمن اثني عشر رجلًا (عشرة من الخزرج واثنين من الأوس)، فبايعوا النبي ﷺ بالعقبة على: ألا يشركوا بالله شيئًا، ولا يسرقوا ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم

(١) حرب بعاث: حرب طويلة قامت بين الأوس والخزرج، استمرت لأكثر من مائة عام، مات فيها خلق كثير، وساعد على تأجيجها يهود المدينة.

وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف. وكانت تلك "بيعة العقبة الأولى". وأرسل النبي ﷺ مع هذا الوفد مصعب بن عمير رضي الله عنه ليعلمهم دينهم ويقرءهم القرآن، وبذلك انتشر الإسلام في المدينة، وصار حديث القوم في مجتمعاتهم ونواديهم، وقويت الأواصر الأخوية بين الأوس والخزرج.

بيعة العقبة الثانية

ثم لمّا كان موسم الحج الذي يلي بيعة العقبة الأولى- في العام الثالث عشر من البعثة- وفد إلى مكة كثيرون من أهل المدينة، فتواصلوا برسول الله ﷺ سرًّا، وواعدهم أن يجتمع بهم ليلاً عند جمرة العقبة، على أن يكتموا الأمر حتى لا يطلع عليه أحد من قريش.

فلما جاء الموعد ناموا في رحالهم مع قومهم، حتى إذا مضى ثلث الليل الأول أخذوا يتسللون، فكان يتتابع الرجل والرجلان، حتى اجتمعوا عند العقبة، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً: اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس. وكان معهم امرأتان: نسيبة بنت كعب من بني النجار، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة.

وجاءهم رسول الله ﷺ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان على دين قومه، ولكنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له.

وكان العباس أول من تكلم، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ لا يزال في عز من قومه، ومنعة في بلده، فإن كنتم ترون أنكم

وافـون لـه بـما دعوتمـوه إليـه ومانعـوه ممـن خالفـه، فأنتـم ومـا تحملتـم مـن ذلـك، وإلا فمـن الآن فدعـوه. فبـادر محدثهـم بالإجابـة قائـلاً: "إنـما نريـد الوفـاء والصـدق وبـذل الأرواح دون رسـول الله ﷺ، فتكلـم يـا رسـول الله! فخـذ لنفسـك ولربـك مـا أحببـت". وسـألوه عـن شروط البيعـة، فقـال رسـول الله ﷺ:

١- أنه يشترط لربه أن يعبدوه وحده، ولا يشركوا به شيئًا.

٢- وأن يبايعوه على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

٣- وعلى النفقة في العسر واليسر .

٤- وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٥- وعلى ألا يخافوا في الله لومة لائم.

٦- وعـلى أن ينـصروه إذا قـدم إليهـم، ويمنعـوه ممـا يمنعـون منـه أنفسـهم وأزواجهـم وأبناءهـم. ولهـم عـلى ذلـك الجنـة.

فبسـطوا أيديهـم وبايعـوه عـلى ذلـك، وكانـت بيعـة المرأتـين قولًا بـدون مصافحة.

ثـم أمرهـم رسـول الله ﷺ أن يخرجـوا منهـم اثنـي عـشر نقيبًـا؛ ليكفلـوا المسـئولية عنهـم، فأخرجـوا تسـعة مـن الخـزرج وثلاثـة من الأوس، وتمـت بيعـة العقبـة الثانيـة، وكانـت تلـك البيعـة مفتاحًـا لتغيـير الأحـداث وتمهيـدًا لبنـاء دولـة الإسـلام في المدينـة.

بدء هجرة المسلمين إلى المدينة

علمت قريش بما حدث بعد انتهاء بيعة العقبة الثانية، فاستشاطت غيظًا، وزادت من أذاها للمسلمين بمكة، فأذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فكانوا يتسللون خفية أفرادًا وجماعات بعيدًا عن أعين قريش وبطشها، إلا عمر رضي الله عنه، فإنه خرج علنًا متحديًا قريشًا، فلم يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه، وقدم المدينة في عشرين من الصحابة.

ولم يبَق بمكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي وقليل من المستضعفين الذين لم يقدروا على الهجرة. واستأذن أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ في الهجرة، فأشار ﷺ عليه بالانتظار، وقال: "على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي"، ففرح أبو بكر لذلك، وانتظر حتى يصحب النبي ﷺ في هجرته، وأعدّ راحلتين كانتا عنده؛ استعدادًا لهذه الرحلة فور أن يصدر الأمر الإلهي للنبي ﷺ بالهجرة.

أما قريش فقد جن جنونها لما رأت النبي ﷺ قد صارت له شيعة وأنصار من غيرهم، وأن المسلمين صارت لهم دار منعة وأمان بالمدينة، وأحسوا أن ذلك يشكل خطرًا على كيانهم،

فاجتمعوا في دار الندوة ليتشاوروا في حل قاطع يتخصلوا به من النبي ﷺ ودعوته، فقال قائل منهم: "نحبسه مكبلاً بالحديد حتى يموت". وقال آخر: "نخرجه وننفيه من بلادنا". فقال أحد كبرائهم: "ما هذا ولا ذاك برأي، لأنه إن حبس ظهر خبره، فيأتي أصحابه وينزعونه من بين أيديكم، وإن نفي لم تأمنوا أن يتغلب على من يحل بحيهم من العرب بحسن حديثه، وحلاوة منطقه، حتى يتبعوه، فيسير بهم إليكم". فقال الطاغية أبو جهل: "الرأي أن نختار من كل قبيلة فتى جلدًا، ثم يضربه أولئك الفتيان ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل جميعًا، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميع القبائل، ويرضون بالدية". فأعجبهم هذا الرأي، وأجمعوا أمرهم، وعينوا الفتيان وحددوا الليلة، واستعدوا لتنفيذ هذه الخطة. لكنّ لله ﷻ كان له تدبير آخر. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

رحلة الهجرة

اتفقت قريش على المكر بالنبي ﷺ، بقتله وتفريق دمه بين القبائل، لكن لله ﷻ ردهم من حيث أتوا خائبين، إذ نزل جبريل -عليه السلام- وأخبر النبي ﷺ بما كان منهم من مؤامرة، وأخبره بإذن ربه تعالى له بالهجرة، وأمره ألا يبيت على فراشه تلك الليلة.

احتراز النبي ﷺ واستعداده للهجرة:

■ حرص رسول لله ﷺ على أن يذهب لأبي بكر رضي الله عنه في وقت الظهيرة؛ لئلا يشعر به أحد من القوم؛ إذ هو وقت شديد الحر بالنسبة لطبيعة صحراء مكة، ويستريح خلاله الناس في بيوتهم للقيلولة. وفي بيت أبي بكر، اتفقا على الخروج في الليل، وجهزا الراحلتين.

■ وحرص رسول لله ﷺ على أن يسلك في رحلته طريقًا بعيدة عن الطريق المعهود للناس، فاستأجر رجلاً عليماً بغياهب الصحراء؛ ليكون دليلاً له ولصاحبه في هجرتهم؛ ووقع اختياره على عبد الله بن أريقط، ورغم أنه كان على دين قريش إلا أنه كان ماهرًا، فتواعدوا على أن يلتقوا بعد ثلاث ليال عند غار ثور.

■ ثم اتفق رسول الله ﷺ مع علي رضي الله عنه على أن يبيت في فراشه تلك الليلة بدلًا عنه، حتى يموِّه على قريش، ولا يشعر أحد بمبارحته بيته.

ولما جاء الليل خرج النبي ﷺ من بيته متوكلًا على الله واثقًا بوعده، وتاركًا عليًّا رضي الله عنه مضجعًا في فراشه، فمضى بين فتيان قريش المتجمهرين حول بيته وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩]، فأخذ الله بأبصارهم فلم يشعروا به.

وتوجه ﷺ من فوره إلى دار أبي بكر، ومن خوخة داره خرجا، حتى وصلا غار ثور -على بعد نحو خمسة أميال في اتجاه اليمن- قبل بزوغ الفجر، ثم خرجت قريش في إثرهما تبحث عنهما في كل مكان، وأعلنت مكافأة كبيرة لمن يرشد عنهما، ولهذا رأى رسول الله ﷺ وأبو بكر أنه من الحكمة أن يقيما بالغار ثلاث ليالٍ حتى ينقطع طلب القوم عنهما، ثم يبدءا بعدها الرحلة، وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، ثم يصبح في القوم ويستمع منهم الأخبار عن رسول الله وصاحبه، فيأتيهما كل ليلة بما سمع، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام في كل ليلة من هذه الليالي، وقد أمر عبد الله بن أبي بكر غلامه عامر بن أبي فهيرة أن يرعى الغنم ويأتي بها إلى الغار ليخفي آثار أقدامهم.

وفي صبيحة الليلة الثالثة من مبيت رسول الله ﷺ وصاحبه بالغار، وهي صبيحة يوم الاثنين في الأسبوع الأول من ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين من مولده ﷺ، التي توافق سنة ثلاث عشرة من البعثة المحمدية، جاءهما بالراحلتين عامر بن فهيرة مولى أبي بكر، ومعه عبد الله بن أريقط الذي كانا استأجراه ليدلهما على الطريق ، فركبا، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة ليخدمهما وسلك بهما الدليل أسفل مكة باتجاه اليمن حتى أبعد، ثم مضى بهما في طريق الساحل، ثم اتجه إلى الشمال وسلك طريقًا لا يسلكه الناس إلا نادرًا، وبينما هم في الطريق مرّ النبي ﷺ وصاحبه على خيمة أم معبد، وكان لديها شاه لا تدر، فلما حلبها ﷺ درّت باللبن حتى امتلأ الإناء وشرب الجميع، وقد وصفت أم معبد النبي ﷺ وصفًا دقيقًا سردته كتب السيرة، وأشرنا إليه في فصل صفاته الخَلقية ﷺ.

ثم استكملوا طريقهم حتى لحق بهم سراقة بن مالك المدلجي، وكان من كفار قريش أغرته المكافأة المعلنة، فلما قرب منهم عثرت فرسه حتى سقط عنها، ثم ركبها وسار حتى سمع قراءة النبي ﷺ، وهو ﷺ لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، فساخت قوائم فرس سراقة في الأرض حتى سقط عنها سراقة، ولم تنهض إلا بعد أن استغاث بالنبي ﷺ، ولقد

شاهد غبارًا يتصاعد كالدخان من آثار خروج قوائم فرسه من الأرض، فداخله رعب شديد، ونادى يطلب الأمان، فوقف رسول الله ﷺ ومن معه حتى جاءهم وعرض عليهم الزاد والمتاع، فلم يقبلوا منه شيئًا، وإنما قال له "اكتم عنا"، فسألهم سراقة كتاب أمن، فكتب له أبو بكر ما طلب بأمر رسول الله ﷺ، وعاد سراقة من حيث أتي، كأنما ما رأى، وذب عنهم القوم فقال لمن وجده في الطلب: "قد استبرأت لكم الطلب، قد كفيتم ما ههنا"، حتى أرجعهم.

واستمر رسول الله ﷺ وصاحبه في طريقهما حتى وصلا "قباء" في يوم الإثنين الثامن من ربيع الأول، فكان يومًا أضاءت له المدينة.

وقد أنشدتُ قصيدة[1] في مدح النبي ﷺ وهجرته المباركة، فقلت:

طَوْعًا لأمرِ الله كانتْ هجرةٌ ... من مكةَ الغرّاءِ نحو مدينةِ
هي دارُ أَمنٍ للنبي وحزبِهِ ... يا سعدُ مَنْ بالهَدْيِ سارَ وسُنّةِ
خرج الحبيبُ مع المُصدِّقِ خافيًا ... هربًا من الإيذاءِ بُغيَةَ عِترةِ
يقوى بها الإسلامُ يعلو جامعًا ... أهلَ الدِّيارِ وهاجرًا بِأُخوَّةِ

(١) نُشِرت هذه القصيدة في مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، عدد (٦٨٦) شوال ١٤٤٣. هـ

لم يخشيا شيئًا ولم يستسلما إلا لربِّ العالمينَ بِذِلَّةِ
داعين ربًّا لا يخيبُ مَن دعا فامنُن بفتحٍ يا كريمُ ونُصرةِ
في غارِ ثَورٍ يلجآنِ بِهَدأةٍ من ليلٍ فجرٍ لائحٍ بنبوةِ
ومحافلُ الإشراكِ تبغي أحمدا والكُفرُ مرجعُهُ يبوءُ بخَيبةِ
شاهتْ عيونٌ رُغمَ أن خُطاهُمُ في بُعدِ خَطْوٍ من حبيبِ المُهجةِ
ما ظنُّكُمْ باثنينِ ثالثُ جمعِهِمْ ربٌّ عظيمٌ ذو جلالٍ وقدرةِ
أبشرْ أبا بكرٍ فذاكَ محمدٌ قد أيّدتهُ ملائكٌ بالنعمةِ
وحَيٌّ تلقّاهُ فنِعمَ بلاغُهُ والقلبُ طاهرُ والنقاءُ بفطرةِ
وعليٌّ خَادعُ مشركين بنومِهِ في مَرقدِ المحبوبِ خيرُ الفَدوةِ
أسماءُ يلطِمُها الجهيلُ بوحشةٍ ونطاقُها شقَّتْ لأجلِ السُّفْرَةِ
وابنٌ لابنِ أبي قُحافةَ عابدًا يأتيهما نبأٌ قُبَيلَ الغُدوةِ
ويضللُ الكفارَ رَعيةُ عامرٍ يمحو بها آثارَ سيرٍ وحُجَّةِ
ودليلهمْ للسيرِ ابنُ أُرَيقطٍ يمشي بساحلٍ من بعيدٍ وعُزلةِ
وبأم معبد يبتغونَ سِقايةً وتصِفهُمُ بالمَدحِ عندَ الخَيمةِ
هذاَ الحبيبُ محمدٌ مُتَحَمِّلٌ ثِقْلَ الجبالِ مُبَلِّغًا للدعوةِ
يضعُ الأساسَ مجاهدًا في ربِّهِ مُتطلعًا لقيامِ عزِّ الدولةِ
شرفًا من الإسلامِ يبني مجدَهُ في طَيبَةِ الإيمَانِ بين النُّخبةِ
يا أمةَ المختارِ هَاكَ نبيُّكمْ فتمسكوا بكتابِ ربِّ العزَّةِ
ما بالُكُمْ لا تقتدون بهَدْيِهِ أرضيتمُ عن دينِكم بدَنِيّةِ؟!
توبوا إلى الرحمنِ توبةَ صادقٍ واستبشروا بحُلولِ خيرِ الهجرةِ

المرحلة المدنية

في المدينة

لما سمع أهل المدينة بخروج رسول الله ﷺ، طفقوا يخرجون كل غداة لانتظاره، حتى يطول بهم الانتظار ويردهم حر الظهيرة إلى بيوتهم. فلما انقلبوا يومًا بعد انتظار طويل، إذ أوفى رجل من اليهود على أُطُم - يعني: بناء كالحصن - فأبصر رسول الله وأصحابه عليهم ثياب بيض يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: (يا معشر العرب! هذا جدكم - أي حظكم - الذي تنتظرون)، فثار المسلمون إلى السلاح، وتلقوا رسول الله ﷺ بالتكبير، وقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيى أبا بكر رضي الله عنه ظنا منه أنه هو رسول الله ﷺ؛ لظهور الشيب في شعره - حتى أصابت رسول الله ﷺ الشمس، فظلل عليه أبو بكر بردائه، فعرف حينها الناس رسول الله ﷺ.

عدل رسول الله بالناس ﷺ ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء، مكث ﷺ هناك قرابة أربعة أيام،

أسس خلالها مسجد قباء، وصلى فيه ، فلما كان اليوم الخامس - يوم الجمعة - ركب بأمر الله إلى داخل المدينة، وزحف الناس لاستقباله ﷺ مكبرين مهللين ومنشدين:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وكان رسول الله ﷺ لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذ القوم خطام ناقته يقولون: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة. فلما وصلت الناقة إلى موضع المسجد النبوي بركت، ونزل رسول لله ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه حتى بنى مسجده ومساكنه.

هجرة آل البيت

مكث علي بن أبي طالب ﷺ بمكة بعد النبي ﷺ ثلاثة أيام، أدى خلالها ودائع كانت عند رسول الله ﷺ لأهل مكة، ثم خرج ماشيًا على قدميه حتى لحق رسول لله ﷺ بقباء.

ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع ﷺ إلى مكة، فقدما له بفاطمة وأم كلثوم بنتي النبي وبأم المؤمنين سودة، وأم أيمن وأسامة بن زيد. وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر: أم رومان، وأسماء وعائشة، ﷺ وعنهن أجمعين وذلك بعد ستة أشهر من هجرة رسول الله ﷺ، أما ابنته زينب ﷺ فقد منعها زوجها العاص بن الربيع من الهجرة.

بناء المسجد النبوي

وكانت أول خطوة اتخذها النبي ﷺ في المدينة هي بناء المسجد النبوي، واشترى لذلك الأرض التي بركت بها ناقته، وكانت لغلامين يتيمين، وكانت مائة ذراع في مائة ذراع تقريبًا، وفيها قبور المشركين، وخرب ونخل وشجرة من غرقد، فنُبِشَت القبور، وسُوِّيَت الخرب، وقُطعت الشجرة والنخل، وصفت في قبلة المسجد، وجعل الأساس قريبة من ثلاثة أذرع، وأقيمت الحيطان من اللبن والطين، وجُعِلَت عضادتا الباب من الحجارة. والسقف من الجريد، والعمد من الجذوع، وفُرِشَت الأرض بالرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وكانت القبلة وقتئذ في الشمال إلى بيت المقدس، وكان الرسول ﷺ ينقل الحجارة واللبن مع المهاجرين والأنصار، ويرتجز فيرتجزون معه ويقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة..

فاغفر للأنصار والمهاجرة..

فيزيدهم ﷺ بذلك نشاطًا، حتى تم البناء بفضل الله.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

بعد أن أتم رسول الله ﷺ بناء المسجد النبوي، عزم على تأسيس مجتمع إسلامي قوي بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ وذلك لدعم ركائز الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة على أساسٍ من الحب والرحمة.

وقد أسرع الأنصار في الاستجابة لعقد المؤاخاة؛ لِما في قلوبهم من المحبة والإيثار. وكان من سجايا الأنصار رضي الله عنهم وكرمهم أنهم كانوا يتنافسون في إنزال المهاجرين واستضافتهم في بيوتهم، فكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩]. فنزل كل مهاجرٍ على أخيه الأنصاري، وآخى رسول الله ﷺ بينهم على المؤاساة، وأنهم يتوارثون فيما بينهم بعد الموت، دون ذوي الأرحام، ثم نسخ التوارث بعد ذلك وبقيت المؤاخاة.

وكان من حب الأنصار لإخوانهم المهاجرين أنهم عرضوا نخيلهم على النبي ﷺ ليقسم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين فأبى، فقالوا: "إذن تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة"، فقَبِلَ ذلك.

ومن أنبل قصص المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، قصة سعد بن الربيع مع عبد الرحمن بن عوف، وكان سعد أكثر الأنصار مالًا وأوفرهم حالًا، فقال لأخيه المهاجر عبد الرحمن بن عوف: "أُقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فسمِّها لي، أطلقها. فإذا انقضت عدتها فتزوجها"، فقال له:" بارك الله في أهلك ومالك. أين سوقكم؟" فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، وما هي إلا أيام حتى اكتسب مالًا، وتزوج امرأة من أفضل نساء الأنصار، فبُورِكَ لسعد بإيثاره، وبورك لعبد الرحمن بعفته. قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨ - ٩]... فرحم الله المهاجرين، ورحم الله الأنصار، ونسأل الله أن يلحقنا بهم على خير.

اليهود في المدينة

كان بالمدينة ثلاث قبائل من اليهود، هم: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير. أقرّهم رسول الله ﷺ على دينهم وعقد معهم معاهدة، نصت على الآتي:

١- أنهم أمة مع المؤمنين، ولهم دينهم وللمسلمين دينهم، وعليهم نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٢ - وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وعلى من دهم يثرب، كل يدافع عن جهته.

٣ - وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

٤ - وأن المرء لا يؤخذ بإثم حليفه.

٥ - وأن النصر للمظلوم .

٦ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٧- وأن يثرب حرام لأهل هذه الصحيفة.

٨ - وأن ما يكون بينهم من حدث أو اشتجار فإن مرده إلى الله ورسوله.

٩ - وأنه لا تجارة مع قريش ولا من نصرها.

١٠- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

وبهذا الميثاق انتظم سكان المدينة المنورة من مسلمين ويهود كيان واحد، وأصبحت المدينة وضواحيها دولة ذات استقلال وسيادة، والكلمة النافذة فيها للإسلام، ورئيسها رسول الله ﷺ، إلا أن اليهود أبوا إلا العداوة والبغضاء للمسلمين، وأضمروا الحسد للنبي ﷺ مع كامل علمهم بأنه رسول آخر الزمان، وعظيم يقينهم بصفته الواردة في كتبهم، فسعوا بكل سبيل إلى إثارة الوقيعة بين المسلمين، ووضعوا أيديهم في أيدي أعدائهم كما سنرى في الأحداث القادمة.

مشروعية القتال

لما كانت قريش أمة معادية للنبي ﷺ ودعوته، ولها باع طويل في إيذاء رسول الله ومن معه من المسلمين؛ أخرجتهم من ديارهم واستولت على ما تركوه بمكة من أموالهم، وتطاولت على المستضعفين الذين لم يقدروا على الهجرة، فإنها حرصت على عدم تضييع فرصة لاستفزاز المسلمين ونصب المكائد مع يهود المدينة؛ وحيث إذ قوي الإسلام وصارت له دولة ومنعة أذن الله تعالى لرسوله ﷺ بقتالهم وقتال كل معتد صاد عن الدعوة.

وقد مرَّ تشريع القتال بعدة مراحل، وهي:

■ المرحلة الأولى: الحظر.

وذلك عندما كان المسلمون في مكة، وكانوا يطالبون النبي ﷺ بالإذن لهم في القتال فيجيبهم: "اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال".

■ المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجاب.

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]

■ المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]

■ المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفار على المسلمين.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

● ومن أهم أهداف القتال في سبيل الله:

١- حماية حرية العقيدة.

٢- حماية الشعائر والعبادات.

٣- دفع الفساد في الأرض.

٤- ابتلاء المؤمنين وتربيتهم واتخاذ شهداء منهم.

٥- توهين كيد الكفار.

٦- كشف المنافقين (وهم قوم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر وكانوا بالمدينة على عهد رسول الله ﷺ).

٧- دفع اعتداء الكفار على المسلمين المستضعفين.

حركة السرايا

أول ما بُدِئ من أمر الجهاد في الإسلام "السرايا"، والسرية هي الدورية العسكرية التي يؤمِّر عليها رسول الله ﷺ أحدًا من أصحابه ولا يخرج فيها بنفسه، بينما الغزوة فهي التي يخرج فيها بنفسه ﷺ.

ومن أغراض السرايا:

١- استكشاف حركات العدو، وتأمين حدود المدينة؛ حتى لا يؤخذ المسلمون على حين غرّة.

٢- الضغط على قريش بالتعرض لقوافلهم حتى يشعروا بالخطر على تجارتهم وأموالهم وأنفسهم؛ فإما أن يفيقوا من غييهم، فيسالموا المسلمين ويتركوهم على حريتهم في نشر الإسلام والعمل به، وإما أن يلقوا جزاء شرهم وعدوانهم على الله ورسوله وعباده المؤمنين.

٣- عقد التحالفات مع القبائل.

٤- إبلاغ رسالة الإسلام.

● وأول سرية بعثها رسول الله ﷺ كانت في رمضان من السنة الأولى، بقيادة عمه "حمزة بن عبد المطلب" في ثلاثين رجلاً من المسلمين، وسُميت بسرية "سيف البحر"؛ لأنهم التقوا عيرًا لقريش بقيادة أبي جهل على ثلاثمائة راكب عند ساحل البحر قادمة من الشام، وقد حجز بينهما مجدي بن عمر الجهني، فانصرف الفريقان دون قتال.

وتتابعت السرايا والبعوث، ثم في رجب -وهو أحد الأشهر الحرم- من السنة الثانية من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي رضي الله عنه إلى نخلة (بين مكة والطائف)؛ ليأتوا بخبر عير قريش، لكنهم هجموا عليها، فقتلوا رجلاً، وأسروا اثنين، وعاد عبد الله بن جحش بالقافلة والأسيرين إلى المدينة، فغضب رسول الله ﷺ، ولم يرضَ بما حدث في الأشهر الحرم، فأطلق الأسيرين وأدى دية المقتول.

ووجدت قريش الفرصة سانحة لاستغلال ما فعلته سرية عبد الله بن جحش لتشويه سمعة المسلمين، على الرغم من أنهم قد انتهكوا كل الحرمات من قبل في محاربة الإسلام واضطهاد أهله في الأشهر الحرم وفي غير الأشهر الحرم! لكنه الكيل بمكيالين! إلى أن نزل الوحي حاسماً لكل تلك الأقاويل، ومؤيدًا لمسلك عبد الله بن جحش تجاه المشركين. قال تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وهنا أدركت قريش أنها مؤاخذة بسيئاتها، وأن تجارتها مع الشام أصبحت تحت أيدي المسلمين.

تحويل القبلة وأحداث أخرى

كانت حادثة تحويل القبلة في شهر رجب على رأس سبعة عشر شَهرًا من مَقدم رسول الله ﷺ إلي المدينة، وذلك أنه صُرِفت القِبلة عن بيتَ المقدس بالشام إلى البيت الحرام بمكة المكرمة، فلمّا علمت اليهود بذلك أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، ما ولّاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك، وما أرادوا من ذلك إلا فتنة النبي ﷺ عن دينه، وإثارة البلبلة بين المسلمين، فأنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٣].

والحكمة من تحويل القبلة وإعادتها إلى البيت الحرام هي:

١- اختبار المؤمنين؛ لبيان انقيادهم لأمر الله تعالى ولرسوله ﷺ، وقد ثبت الصحابة رضي الله عنهم بفضل الله ﷻ وانصاعوا طائعين لأمر الله. فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بَيْنَا النَّاسُ بِقُبَاءٍ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عليه اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ، وقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الكَعْبَةَ، فَاسْتَقْبِلُوهَا، وكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّأْمِ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الكَعْبَةِ.

٢- جعل الجزيرة العربية محور الأحداث، وفي ذلك التمهيد لفتح مكة وإنهاء الوضع الشاذ بالبيت الحرام.

٣- ربط الإسلام بالحنيفية (ملة إبراهيم عليه السلام)، وتمييز أمة الإسلام عن غيرها من الأديان السابقة.

٤- جبر خاطر النبي ﷺ إذ يقول له ربه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٤٤].

بعض الأحداث والتشريعات:

تشريع فريضة الصيام:

وذلك في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]

تشريع الزكاة:

وذلك بعد شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة أيضًا.

زواج النبي ﷺ بالسيدة عائشة رضي الله عنها:

وكان النبي ﷺ قد عقد عليها في مكة قبل الهجرة بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها، وبنى بها في المدينة وهي ابنة تسع سنين في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة.

تنـــــويه:

هناك الكثير من القيل والقال، والسجالات، والمناقشات، والاتهامات حول هذا الموضوع، وكيف يتزوج النبي ﷺ بطفلة؟! وكيف يحدث هذا؟! إلى درجةٍ دفعت بعض المتنمين إلى التيار الإسلامي إلى تكذيب أحاديث في الصحيحين ورفض حقائق تاريخية تحت شعار "أنا لا أكذب، ولكني أتجمل".

والحق أن الأمر لا يستحق الطعن في السُّنة بأكملها من أجل اتهامات لا وزن لها! إن أمر الزواج ببساطة راجع إلى الأعراف، فكما أنه من الطبيعي في عصرنا الآن أن يصل سن زواج الفتيات إلى الثلاثين، رغم أنه قبل مئتي عام فقط لم يتعدَ في أعراف الناس سن العشرين، وإلا وُسِمَت الفَتاة بالعنوسة! فقد كان من الطبيعي أيضًا لدى المجتمع العربي قبل ألف وأربعمائة عام أن تتزوج الفتيات في سن العاشرة طالما أنهنّ قد بلغن، ولو كان زواج النبي ﷺ بعائشة في هذه السن خرمًا لمروءته أو قدحًا في أخلاقه، لتسابقت قريش إلى استغلاله للتشنيع عليه والطعن في نبوته ﷺ، ولكنّ ذلك لم يحدث، ولم يصلنا أي خبر بذلك؛ والسبب واضح، وهو أن الأمر كان طبيعيًّا في عرف ذلك الزمان، ولا شيء فيه.

ومن الطبيعي أيضًا التسليم ببلوغ عائشة في هذه السن الصغيرة؛ لأنها نشأت في منطقة حارة، وتأثير العوامل الطبيعية من درجات الحرارة ونوعية الغذاء في فسيولوجية المرأة أمر معروف في كتب البيولوجيا والطب، وما زالت طبيعة أغلب الفتيات إلى الآن في المملكة العربية السعودية تميل إلى البلوغ في هذه السن المبكرة.

ثم إن عائشة رضي الله عنها كانت أسعد خلق الله بهذا الزواج الميمون، وهي أحب زوجاته إليه ﷺ من بعد خديجة رضي الله عنها، وأكثرهنّ

روايةً لأحاديث رسول الله، وتشرفت بنزول الوحي في بيتها، فلماذا يتحدث هؤلاء كما لو أن زواج عائشة كان جحيماً؟! هذا وقد راعى نبي الله ﷺ بحكمته احتياجاتها وصغر سنها، فكان يسابقها، ويأتي بها إلى المسجد لتشاهد ألعاب الحبشة، ويرسل إليها صاحباتها ليلعبن معها[١]... فصلاةً وسلامًا على سيد الخلق ﷺ المنزَّه عن شبهات الطاعنين[٢].

(١) انظر الأحاديث: سنن ابن ماجه: (١٩٧٩)، ومسند أحمد: (٢٤١١٨)، (٢٤٥٤١)، والسنن الكبرى للنسائي: (٨٩٥١)، وصحيح البخاري: (٦١٣٠)، وصحيح مسلم: (٢٤٤٠).
(٢) اللبنة المتممة، ص: ٦٤ - ٦٥.

غزوة بدرٍ الكبرى

تاريخها: يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من هجرة المصطفى ﷺ.

سببها: بلغ المسلمين تحرك قافلة تجارية كبيرة من الشام تحمل أموالًا عظيمة لقريش، على رأسها أبو سفيان بن حرب ويقوم على حراستها نحو ثلاثين إلى أربعين رجلًا، فلم يضيع رسول لله ﷺ الفرصة، وأرسل بَسبَس بن عمرو لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب رسول الله أصحابه للخروج، وقال لهم: "هذه عير قريش فيها أموالهم، فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها". وكان خروجه ﷺ من المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة في ثلاثمائة وسبعة عشر رجلًا (أغلبهم من الأنصار)، ومن المؤكد أنه حين خرج ﷺ من المدينة لم يكن في نيته قتال، وإنما كان قصده الاستيلاء على عير قريش، لعل الله يرد لعباده المهاجرين جزءًا من أموالهم التي أخذتها قريش ظلماً وعدوانًا، واستخلف رسول الله ﷺ عبد الله بن أم مكتوم

على الصلاة بالناس في المدينة عند خروجه إلى بدر، ثم أعاد أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة وعينه أميرًا عليها.

كيف تحول الأمر إلى قتال؟

كان أبو سفيان داهية من دواهي العرب، وكان يتحسس أخبار المسلمين وتحركاتهم، فلمّا وصل إلى بدر ساوره الشك، فسأل من هناك: (هل رأيتم من أحد؟) قالوا: لا، إلا رجلين. فقال: (أروني مناخ ركابهما)، فأروه، فأخذ البَعر[1] ففته فإذا فيه النوى[2]، فقال: (هذا والله علائف يثرب). ففطن إلى تحرك المسلمين إليه، فسارع بتغيير مسار القافلة إلى الساحل، وأرسل في الوقت نفسه عمرو بن ضمضم الغفاري إلى قريش يستنفرها لإنقاذ قافلتها وأموالها، فجاءهم عمرو بن ضمضم وقد جدع أنف بعيره، وشق قميصه صارخًا: (يا معشر قريش: اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث). فعزمت قريش على الخروج للقتال، وعلى الرغم من عودة أبي سفيان والقافلة بسلام إلى مكة، إلا أن غالبية رؤساء قريش أخذتهم

(١) البعر: براز الإبل.

(٢) يقصد نوى التمر؛ والمدينة مشهورة بنخلها، فلما رأى نوى التمر في براز الإبل أدرك أن المسلمين يراقبون القافلة.

العزة بالإثم، وأصروا على التقدم نحو بدر لتأديب المسلمين؛ لئلا تهتز صورتهم أمام العرب.

كان رسول الله ﷺ قد وصل بالفعل إلى منطقة بدر حين بلغه خبر نجاة القافلة وخروج قريش لقتاله ﷺ، وإزاء هذا التحول الخطير وقف رسول الله ﷺ بين أصحابه سائلًا المشورة، فقام أبو بكر فتكلم وأحسن، وقام عمر فتكلم وأحسن، ثم قام المقداد بن الأسود فقال: (والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك، وبين يديك وخلفك)، فسُرَّ رسول الله ﷺ لذلك وأشرق وجهه.

لكن رسول الله ﷺ عاد فقال: (أشيروا عليّ أيها الناس)، لأن النبي ﷺ لم يكن يقصد بسؤاله أبا بكر ولا عمر ولا المقداد ولا سائر معشر المهاجرين! وإنما كان ينتظر أن يحير الأنصار جوابًا؛ فهم غالبية جنده، وقد وقعت بيعة العقبة على أن يمنعوا رسول الله ﷺ ما دام في مدينتهم لا خارجها، وها قد خرجوا إلى بئر بدر وهي وقتئذ خارج حدود المدينة، وتحولت العير إلى النفير، فإن اعتذروا عن القتال وقفلوا راجعين فلا ملامة عليهم، ففطن سعد بن معاذ -حامل لواء الأنصار- إلى مقصد رسول الله ﷺ، فنهض من فوره قائلًا: "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟" قال: "أجل".

قال: "لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبرٌ في الحرب، صُدقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله". فانفرجت أسارير رسول الله ﷺ من مقالة سعد بن معاذ، ونشطه ذلك، فقال: "سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم".

ومضى رسول الله ﷺ ينظم صفوفَ جنده بعد ما رأى من شجاعتهم واجتماعهم على القتال، وأرسل ﷺ علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد أبي وقاص إلى ماء بدر ليستطلعوا له أخبار جيش الأعداء، فعلموا من غلامين يستقيان لجيش قريش أن عدتهم بين التسعمائة والألف، فقال النبي ﷺ لأصحابه عندئذ: (هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها).

■ **مشورة الحباب بن المنذر:**

بعد أن جمع ﷺ معلومات دقيقة عن قوات قريش سار مسرعا ومعه أصحابه إلى بئر بدر ليسبقوا المشركين إلى الماء، وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء من

مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر، وقال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة"، فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم -أي جيش المشركين- فننزله ونغور -أي: نخرب- ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضًا فنملأه ماءً ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبي ﷺ برأيه ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار.

وقد وصف الله ﷻ خروج جيش المشركين فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]. أما النبي ﷺ فقد بات يصلي ويبتهل لربه أن يمنحه النصر، وبات المسلمون قريري العين واثقين بربهم ووعده، وأهلّت بشائر النصر، فنزل النعاس أمنةً وأمان، وهطل المطر غيثًا للقلوب وتطهيرًا للأبدان وشربًا هنيئًا يسقى العطشى ويثبت الأقدام، يقول الله ﷻ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١].

ولّما كان الصباح تجهز الجيشان، وقام النبي ﷺ بتعديل صفوف جنده حتى صاروا كالبنيان، ثم نظر ﷺ إلى قريش وقال: (اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك.. اللهم فنصرك الذي وعدتني). ثم برز ثلاثة من صفوف المشركين. وهم: عتبة بن ربيعة وابنه الوليد وأخوه شيبة، وطلبوا من يخرج إليهم للمبارزة. فبرز إليهم ثلاثة من الأنصار، فقال المشركون: "إنما نطلب أكفاءنا من بني عمنا" -أي: من المهاجرين-، فبرز لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فكان حمزة بإزاء شيبة، وكان عبيدة بإزاء عتبة، وكان علي بإزاء الوليد. فأما حمزة وعلي فقد أجهز كل منهما على مبارزه، وأما عبيدة فقد ضرب صاحبه ضربة لم تمته وضربه صاحبه مثلها، فجاء علي وحمزة فأجهزا على مبارز عبيدة، وحملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين، وقد استشهد رضي الله عنه بعد ذلك من آثار جرحه.

ثم بدأ الهجوم، فخرج رسول الله من عريشه يشجع الناس ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥]، وأخذ ﷺ من الحصباء حفنة ورمى بها في وجوه المشركين قائلًا: "شاهت الوجوه". ثم قال لأصحابه: "شدوا عليهم"، فحمي الوطيس، وأيد الله عباده بالملائكة الكرام، يقاتلون مع المؤمنين ويضربون

من الكافرين كل بنان. قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال:٩ - ١٠]. فلم تك إلا ساعات حتى انهزم المشركون وولوا الأدبار، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فقتلوا منهم سبعين رجلًا وأسروا سبعين، ومن بين القتلى كثيرون من صناديدهم: كأبي جهل، قتله الصبيان: معاذ ومعوّذ، وأمية بن خلف، وعقبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة وغيرهم... ولما انتهت القتال أمر ﷺ كما أمر بإلقاء قتلى المشركين في قليب بدر، ثم أمر بجمع الغنائم فجُمِعَت، وأرسل ﷺ من يبشر أهل المدينة بالنصر، ثم عاد ﷺ بالغنائم والأسرى إلى المدينة، فقسم الغنائم بين المجاهدين ومن في حكمهم من المخلفين لمصلحة، وحفظ لورثة الشهداء أسهمهم، وكانوا أربعة عشر رجلًا رضي الله عنهم.

وعُرِفت غزوة بدر "بيوم الفرقان" مثلما سماها الله ﷻ في كتابه، فقال: ﴿۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١]؛ فهو اليوم الذي فرّق الله به بين الحق والباطل، وكان النصر المبين لعباده المؤمنين.

أسارى بدر

ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة استشار أصحابه في أمر الأسارى، فأشار عليه أبو بكر بأخذ الفدية منهم عسى الله أن يهديهم فيما بعد إلى الإسلام، بينما أشار عليه عمر بقتلهم حتى يمرَّغ أنف الكفر في التراب، وكان رسول الله ﷺ ميالًا إلى الرحمة بطبيعته، فقرر الأخذ برأي أبي بكر، غير أن الوحي كان له رأي آخر.

فلما كان الغد دخل عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ ومعه أبو بكر فإذا هما يبكيان، فقال: "يا رسول لله أخبرني، من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما"، فقال رسول الله ﷺ: (أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، ولقد عُرِض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة -شجرة قريبة من النبي ﷺ-)، وأنزل لله ﷻ قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩﴾ [الأنفال:٦٧ - ٦٩]. فعاتبهم الله ﷻ، ثم عفا عنهم وأحل الله لهم الغنيمة والفداء.

وكانت الفدية من أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألف درهم. وأما من كان يحسن القراءة والكتابة من الأسارى فجُعِلَت

فديته أن يعلم عشرة غلمان من المسلمين. وأحسن ﷺ إلى بعض الأسارى فأطلقهم بغير فدية كأبي عزة الجمحي الذي كان يثير بشعره قريشًا ضد المسلمين، فطلب من رسول الله ﷺ أن يفك أسره على ألا يعود لمثل ذلك، فأطلقه على هذا الشرط. وكذلك أبو العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقد بعثت ﵂ في فداء زوجها أبي العاص بمال فيه قلادة لها، كانت عند أمها السيدة خديجة ﵂ فأدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة، واستأذن الصحابة في إطلاقه بغير فدية، ففعلوا، فأطلقه بعد أن اشترط عليه أن يخلي سبيل زينب، فخلاها، فهاجرت إلى المدينة.

وكان من ضمن الأسرى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وكان قد خرج إلى هذه الحرب مكرهًا، فقال لرسول الله ﷺ: (إنما كنت مسلمًا)، لكن ذلك لم يعفه من الفداء، وأنزل الله ﷻ فيه وفيمن على شاكلته قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الأنفال: ٧٠].

غزوة بني قينقاع

أظهر يهود بني قينقاع الغضب والحسد الذي لطالما أكنوه للمسلمين بعد انتصارهم في غزوة بدر، فجاهروا بعداوتهم لرسول الله ﷺ. وقد جمعهم النبي ﷺ في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام وحذرهم مما أصاب قريشًا في بدر، غير أنهم أجابوا النبي ﷺ بالتحدي والتهديد، وقالوا: "يا محمد، لا يغرنّك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنَّا نحن الناس، وأنك لم تلقَ مثلنا"، وبذلك نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷻ فيهم قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:١٢ - ١٣].

ثم كانت الحادثة التي أشعلت فتيل الأزمة، ذلك أن امرأةً من المسلمين قدمت سوق بني قينقاع لتبيع شيئًا من حُليها،

فجعل اليهود يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد أحدهم إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها وصاحت، فوثب رجل من المسلمين على ذلك اليهودي فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، واستصرخ أهل المسلم بالمسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

وهنا هبَّ النبي ﷺ إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك في يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة، وحاصرهم النبي ﷺ خمس عشرة ليلة، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب واضطروا للنزول على حكمه ﷺ، فأمر بهم رسول الله ﷺ فرُبِطوا فكانوا يكتفون أكتافًا.

وحاول ابن سلول زعيم المنافقين الدفاع عن يهود بني قينقاع؛ لأنهم كانوا حلفاء للخزرج، فأتى رسول الله ﷺ فقال: "يا محمد، أحسن في مواليّ"، فأبطأ عليه رسول الله، فقال: "يا محمد، أحسن في موالي"، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فأدخل ابن أبي يده في جيب درع رسول الله، فقال له النبي ﷺ: "أرسلني"، وغضب رسول الله: حتى رأوا ذلك في وجهه، ثم قال: "ويحك! أرسلني"، قال: "لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربع مائة حاسر وثلاثة مائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ

أخشى الدوائر"، فقال رسول الله: "هم لك"، ونزل في عبد الله بن أبي بن سلول ومن هم على شاكلته قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾[المائدة: ٥١-٥٢]

فخلى رسول الله ﷺ سبيلهم، ثم أمر بإجلائهم من المدينة، وغنم رسول الله والمسلمون ما كان لديهم من مال وديار... وهكذا خرج بنو قينقاع من مدينة رسول الله ﷺ صاغرين، وكانوا هم أشجع يهود المدينة، وأشدهم بأسًا، وأكثرهم عددًا وعدّة، وبخروجهم سيطر الرعب على باقي قبائل اليهود، ولاذوا بالصمت، كاتمين حقدهم، ومنتظرين اللحظة المناسبك للمكر بالنبي ﷺ.

غزوة أُحُد

17 الزمان: شوال من السنة الثالثة للهجرة.

17 المكان: جبل أُحُد على أطراف المدينة.

■ السبب: لم يهدأ لقريش بال منذ هزيمتها في بدر، وما زادها مرور الأيام إلا حقدًا على المسلمين، فلما استدارت السنة، كانت مكة قد استكملت عدتها وأحلافها للهجوم على المسلمين، فخرجت في جيش يربو على الثلاثة آلاف بقيادة أبي سفيان بن حرب للأخذ بالثأر، ورأى أبو سفيان أن يصطحبوا معهم النساء؛ حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون حرماتهم.

■ النبي ﷺ يستشير أصحابه:

أسرع العباس عم رسول الله ﷺ بإرسال مبعوث إليه برسالة مستعجلة يخبره بخروج قريش لقتاله، فاجتمع رسول لله بأصحابه ليتدبروا أمرهم. ورأى النبي ﷺ أن يتحصنوا في المدينة، وينتظروا قدوم قريش إليهم، حتى إذا دخلوا استدرجوهم في الأزقة، وقاتلوهم شر قتال. بينما مال شباب المسلمين ممن فاتتهم غزوة بدر إلى الخروج للقائهم؛ رجاء أن يصيبوا من

الفضيلة ما أصاب أصحاب بدر، وكان هذا رأي الأكثرية، فلم يجد رسول الله ﷺ بُدًّا من النزول على رأيهم، فدخل ﷺ بيته فلبس درعه وعدته، وشعر القوم أنهم استكرهوا رسولَ الله ﷺ على رأيهم، وأظهروا الرغبة في النزول على رأيه! بيد أن النبي ﷺ أراد إنهاء هذا الاضطراب في الآراء فقال عاقدًا العزم: (ما ينبَغي لنبيٍّ أن يضعَ أداتَهُ -أي سلاحه- بعدَ أن لبسَها حتَّى يَحكُمَ الله بينَهُ وبينَ عدوِّه)[1].

وخرج رسول الله ﷺ في ألف رجل، إلا أن رأس المنافقين ابن سلول انسحب في الطريق بثلاثمائة من الناس، متحججًا بأنه لن يكون هناك قتال، فأنزل الله تعالى فيه ومن معه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. ولقد همت بنو حارثة وبنو سلمة أن يرجعا لما رأيا انسحاب ابن سلول، إلا أن الله ثبتهما. قال جابر بن عبد الله ﷺ: نَزَلَتْ هذه الآيةُ فِينَا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] بَنِي سَلِمَةَ، وبَنِي حَارِثَةَ، وما أُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ، والله يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

(١) فتح الباري لابن حجر، (١٣/ ٣٥٣).

ولمّا وصل رسول الله ﷺ إلى أُحُد أخذ يجهز الجيش، ويصف الصفوف، جاعلاً جبل أُحُد خلفهم. ثم انتقى خمسين من الرماة وأمّر عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، ووزعهم فوق جيل عينين (المعروف الآن بجبل الرماة) المقابل لجبل أحد؛ ولذلك ليمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين، وأكد عليهم ﷺ ألا يبرحوا أماكنهم مهما حدث قائلاً: (إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هذا حتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وأَوْطَأْنَاهُمْ، فلا تَبْرَحُوا حتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ) [البخاري: ٤٠٤٣].

بدأ القتال بالمبارزة، إذ خرج رجل من صفوف المشركين فبرز له الزبير بن العوام فقتله، وقتل علي بن أبي طالب حامل لواء المشركين وهو حمزة بن أرطاة، وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق يطلب المبارزة، فهمَّ أبو بكر أن يبرز إليه فمنعه النبي قائلاً: "متعنا بنفسك يا أبا بكر".

ثم التحم الجيشان، وجعلت نساء قريش يضربن الدفوف وينشدن الأشعار تهييجًا لرجالهن، وشرع رسول الله ﷺ يشحذ همم أصحابه، فأخذ سيفًا وقالَ: (مَن يَأْخُذُ مِنِّي هذا؟) فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ، كُلُّ إِنْسَانٍ منهمْ يقولُ: أَنَا، أَنَا، قالَ: (فمَن يَأْخُذُهُ بحَقِّه؟) قالَ: فأحْجَمَ القَوْمُ. فَقالَ سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ وهو أَبُو دُجَانَةَ: أَنَا آخُذُهُ بحَقِّهِ، فأخَذَهُ فَفَلَقَ به هَامَ المُشْرِكِينَ.

واستماتت المسلمون في قتال المشركين، ودارت رحى الحرب، فكانت الغلبة للمسلمين، ولما رأى الرماة الهزيمة التي حلت بقريش خالفوا أمر رسول الله ﷺ وتركوا أماكنهم وخلوا ظهر المسلمين، وجعلوا يجمعون الغنائم ظنًّا منهم أن المعركة قد انتهت، فانتهز خالد بن الوليد الفرصة -وكان يومئذ على الشرك- وقام بالالتفاف حول المسلمين، فلما رأى المشركون ذلك عادوا إلى القتال من جديد، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيط، فأصبحوا يقاتلون متفرقين، فلا نظام يجمعهم ولا وحدة تشملهم، بل لم يعودوا يميزون بعضهم، فقتلوا اليمان والد حذيفة بن اليمان ﷺ بالخطأ، وأخذ المسلمون يتساقطون في الميدان.

وحمل ابن قمئة على مصعب بن عمير ﷺ، وكان شديد الشبه برسول الله ﷺ فقتله وقال لقريش: (قد قتلت محمدًا)، فشاع بين القوم أن محمدا قد قتل فتفرق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة، وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل، واختلطت على الصحابة أحوالهم، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة!

وفقد المسلمون اتصالهم بالرسول، واختلط الحابل بالنابل واشتدت حرارة القتال، وصار المشركون يقتلون كل من يلقونه من المسلمين، واستطاعوا الخلوص قريبًا من النبي ﷺ فرموه

بحجر كسر أنفه الشريف ورباعيته وشجه في وجهه الكريم ﷺ فأثقله وتفجر الدم منه. فجعل النبي ﷺ يسلت الدم عنه، ويقول: "كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟" فعاتبه ربه ﷻ في ذلك، وأنزل تعالى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨]، وبالفعل فقد أسلم بعد ذلك خلق كثير ممن شارك في هذه المعركة وتاب الله عليهم.

وحمل المشركون على المسلمين حملة رجل واحد، وأصبح هدفهم الرئيس قتل رسول الله ﷺ بعد أن انكشف مكانه لهم، فاستبسل مَن ثبت من الصحابة في الدفاع عن رسول الله ﷺ، والتف حوله أبو بكر وأبو عبيدة والزبير وعمر وقتادة، وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله ﷺ، وترس أبو دجانة دون النبي ﷺ بنفسه، يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه، ووقفت نسيبة بنت كعب تذب عن رسول الله ﷺ بالسيف وترمي بالقوس حتى أصيبت بجراح، وقاتل طلحة دون رسول الله ﷺ حتى أُثخن وأصيب بسهم فشُلَّت يمينه، وأراد النبي ﷺ أن يصعد إلى صخرةٍ فلم يستطعْ، فقعدَ طلحةَ تحتَه حتى استوى على الصخرة، فقال ﷺ: أوجبَ طلحة، أي: وجبت له الجنة.

وبعد قتالٍ مرير، نجح المسلمون بقيادة عمر بن الخطاب ﷺ أخيرًا في رد هجوم المشركين، واستطاع النبي ﷺ الانسحاب بالجيش إلى أحد شِعاب جبل أُحُد، ويئس المشركون من تحقيق نصرٍ حاسم، فطفقوا يمثلون بجثث القتلى، وبقرت هند بنت عتبةً امرأة أبي سفيان بطن حمزة -عم النبي ﷺ -بعد استشهاده، وجدعت أنفه.

■ **مقتل حمزة سيد الشهداء ﷺ:**

قاتل أسد الله حمزة ﷺ قتالًا ضاريًا، وأثخن في المشركين، وأطاح برؤوس نفر من حملة لواء المشركين من بني عبد الدار، وبينما هو على هذه الحال من الشجاعة والإقدام كَمَن له وحشي حتى تمكن منه، ثم رماه بحربته بكل خسة ودناءة، فأصاب منه مقتلًا، يقول وحشي: "إِنَّ حَمْزَةَ قَتَلَ طُعَيْمَةَ بنَ عَدِيِّ بنِ الخِيَارِ بِبَدْرٍ، فَقَالَ لِي مَوْلَايَ جُبَيْرُ بنُ مُطْعِم: إِنْ قَتَلْتَ حَمْزَةَ بعَمِّي فأَنْتَ حُرٌّ، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ النَّاسُ عَامَ عَيْنَيْنِ -وعَيْنَيْنِ جَبَلٌ بحِيَالِ أُحُدٍ، بيْنَهُ وبيْنَهُ وادٍ- خَرَجْتُ مع النَّاسِ إلى القِتَالِ، فَلَمَّا أَنِ اصْطَفُّوا لِلْقِتَالِ، خَرَجَ سِبَاعٌ فَقَالَ: هلْ مِن مُبَارِزٍ؟ قَالَ: فَخَرَجَ إلَيْهِ حَمْزَةُ بنُ عبدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ: يا سِبَاعُ، يا ابْنَ أُمِّ أَنْمَارٍ مُقَطِّعَةِ البُظُورِ، أَتُحَادُّ اللهَ ورَسولَه ﷺ؟! قَالَ: ثُمَّ شَدَّ عليه، فَكانَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ، قَالَ: وكَمَنْتُ لِحَمْزَةَ

تَحْتَ صَخْرَةٍ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي رَمَيْتُهُ بحَرْبَتِي، فأضَعُهَا في ثُنَّتِهِ حتَّى خَرَجَتْ مِن بَيْنِ وركَيْهِ، قَالَ: فَكانَ ذَاكَ العَهْدَ به... وفي رواية: وذهب لينوء نحوي فغلب، فتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته وأخذت حربتي ورجعت المعسكر فقعدت فيه، إذ لم تكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق"[1].

وقد أسلم وحشيّ بعد ذلك في فتح مكة، وخرج في حروب الردة فقتل مسليمة الكذاب، وكان يقول: (لأخرجن إلى مسليمة لعلي أقتله فأكافئ به حمزة).

■ **بعد المعركة:**

استعد المشركون للرجوع إلى مكة بعد انتهاء المعركة، وقبل ذهابهم أشرف أبو سفيان على الجبل ونادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة، فلم يجيبوه، فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، وكان النبي هو الذي نهاهم عن الإجابة، فقال أبو سفيان: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله! إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوؤك.

(١) انظر: البخاري: (٤٠٧٢).

فقال أبو سفيان: قد كان فيكم مُثلة، لم آمر بها ولم تسؤني، ثم قال: اعلُ هُبَل[١]، فعلمهم النبي ﷺ الجواب، فأجابوه: الله أعلى وأجل.

ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم.

فعلمهم النبي ﷺ الجواب فأجابوه: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم قال أبو سفيان: أنعمت فعال، يوم بيوم بدر، والحرب سجال.

فقال عمر رضي الله عنه: لا سواء. قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

قال أبو سفيان: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذن وخسرنا.

ثم دعاه أبو سفيان وقال: أنشدك الله يا عمر! أقتلنا محمدًا؟ قال عمر رضي الله عنه: (لا، وإنه ليسمع كلامك الآن). قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر. ثم نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام القابل.

فقال: نعم، هو بيننا وبينك موعد.

ثم أخذ المسلمون يتفقدون جرحاهم وشهداءهم، ولّما بلغ النبي ﷺ مقتل حمزة بكى، وأمر أن يُدفَن الشهداء في أماكنهم

(١) اسم لصنم كانوا يعبدوه.

حيث قُتلوا، وكانَ ﷺ يَجْمَعُ بينَ الرَّجُلَيْنِ من قَتْلَى أُحُدٍ في ثَوْبٍ واحِدٍ، ثُمَّ يقولُ: أَيُّهُمْ أكْثَرُ أخْذًا لِلْقُرْآنِ، فَإذَا أُشيرَ له إلى أَحَدِهِما قَدَّمَهُ في اللَّحْدِ، وقَالَ: أنَا شَهيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَومَ القِيَامَةِ، وأَمَرَ بدَفْنِهِمْ في دِمَائِهِمْ، ولَمْ يُغَسَّلُوا، ولَمْ يُصَلَّ عليهم.

وقد سطّرت آيات سورة آل عمران مشاهد غزوة أُحُد بدقة، فحبذا الرجوع إليها.

ورغم ما لحق بالمسلمين من الهزيمة في أُحُد إلا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يصطفوا خلفه ليثني على ربه ﷻ، فقال ﷺ بكلماتٍ تدل على كامل رضاه بقضاء الله وعظيم يقينه بنصر مولاه: (اللهم لك الحمدُ كلُّه، اللهم لا قابضَ لما بسطتَ، و لا مُقَرِّبَ لما باعدتَ، و لا مُباعِدَ لما قرَّبتَ، و لا مُعطِيَ لما منعْتَ، و لا مانعَ لما أَعطيتَ اللهم ابسُطْ علينا من بركاتِك و رحمتك و فضلِك و رزقِك، اللهم إني أسألُك النَّعيمَ المقيمَ الذي لا يُحَولُ و لا يزولُ اللهم إني أسألُك النَّعيمَ يومَ العَيْلَةِ ، و الأمنَ يومَ الحربِ، اللهم عائذًا بك من سوءِ ما أُعطِينا، و شرِّ ما منَعْت منا اللهم حبِّبْ إلينا الإيمانَ وزَيِّنْه في قلوبنا، وكَرِّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ واجعلْنا من الراشدين اللهم توفَّنا مسلمين، وأحْيِنا مسلمين و ألحِقْنا بالصالحين، غيرَ خزايا، و لا مفتونين اللهم قاتِلِ الكفرةَ الذين يصدُّون عن سبيلِك ، و

يُكذِّبون رُسُلَك، و اجعلْ عليهم رجزَك و عذابَك قاتلِ الكفرةَ الذين أُوتوا الكتابَ، إلهَ الحقِّ). وفي هذا درس عظيم؛ أن الدعاء هو مخ العبادة، وهو المطلوب في السراء والضراء، وفي النصر والهزيمة... ثم ركب ﷺ فرسه ورجع إلى المدينة.

وقد تركت معركة أُحُد أثرًا غائرًا في قلب رسول الله ﷺ ظل ملازمًا له إلى آخر عهده بالدنيا، فلم تتركه ذكرى أحبابه الذين أودعهم جبل أُحُد، بل أودع قلبه معهم هناك، فكان من أواخر العهد برسول الله ﷺ حين قربت وفاته ﷺ أن زار شهداء "أحد"، وأخذ يدعو لهم، ويعظ الناس.

عن عقبة بن عامر ﷺ، قال: (صَلَّى رَسولُ الله ﷺ علَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمانِي سِنينَ، كَالْمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ والأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ المِنْبَرَ فَقالَ: إنِّي بَيْنَ أيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وأَنَا علَيْكُم شَهِيدٌ، وإنَّ مَوْعِدَكُمُ الحَوْضُ، وإنِّي لَأَنْظُرُ إلَيْهِ مِن مَقَامِي هذا، وإنِّي لَسْتُ أخْشَى علَيْكُم أنْ تُشْرِكُوا، ولَكِنِّي أخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أنْ تَنَافَسُوهَا، قالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إلى رَسولِ الله ﷺ) [متفق عليه واللفظ للبخاري].

حمراء الأسد

لم يستسلم رسول الله ﷺ للهزيمة في أُحُد، ولم يترك الفرصة للمنافقين واليهود ومن حول المدينة من الأعراب ليستضعفوا المسلمين، فأرسل ﷺ عيونه ليتتبعوا خبر جيش المشركين، ولمّا بلغه أن المشركين شعروا بالندم؛ لأنهم لم يشفوا غليلهم بقتل النبي ﷺ وأنهم عازمين على العودة للقتال، قام النبي ﷺ بإعادة تنظيم رجاله، وأذن مؤذن رسول الله ﷺ في اليوم التالي مباشرة لغزوة أحد بخروج كل من حَضر مع النبي ﷺ بالأمس للقاء العدو، فانتفض المسلمون للخروج مع رسول الله ﷺ على الرغم من جراحاتهم، وخرجوا معه ﷺ حتى وصلوا إلى حمراء الأسد[1]. وهمّ أبو سفيان أن يعود بالمشركين للقاء النبي غير أنه خاف وانثنى عزمه فقفل راجعًا بمن معه.

وأقام رسول الله ﷺ بأصحابه في حمراء ثلاثة أيام حتى تأكدوا من رجوع المشركين، ثم عادوا إلى المدينة رافعين رؤوسَهم، قد غسلوا عنهم عار الهزيمة، وارتفعت معنوياتهم.

(١) حمراء الأسد: ضاحية من ضواحي المدينة المنورة، في الجهة الجنوبية الغربية، تبعد عنها مسافة ١٢ كم.

وقد أثنى الله ﷻ في كتابه الكريم على الصحابة ﷺ؛ لمبادرتهم إلى تنفيذ أمر رسول الله ﷺ، وإصرارهم على الخروج إلى حمراء الأسد رغم جراحاتهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران:١٧٢ - ١٧٤].

فاجعة الرجيع

تجرأ أعداء الله على المسلمين بعد هزيمتهم في أُحُد، فحدثت مناوشات مع الأعراب حول المدينة، وتمكن بعضهم من خداع النبي ﷺ، والغدر بالصحابة رضي الله عنهم، ومن ضمن ذلك ما حدث في الرجيع وبئر معونة في السنة الرابعة من الهجرة.

فاجعة الرجيع:

كانت سُلافة بنت سعد -من مشركات مكة- قد قُتِل زوجها وبنوها الأربعة يوم بدر، وكان عاصم بن ثابت رضي الله عنه قد قتل منهم اثنين: الحارث، ومسافعًا، فنذرت لئن أمكنها الله منه أن تشرب في قحف رأسه الخمر، وجعلت لمن جاء برأس عاصم مائة ناقة، فلما علم الأعراب بذلك اتفقوا على حيلة مع بني لحيان للوصول إلى تلك المكافأة الكبيرة.

وبالفعل، قدم رجال من قبيلتي عضل وقارة إلى رسول الله ﷺ، وذكروا له أن فيهم إسلامًا، وطلبوا منه أن يبعث إليهم من يعلمهم الدين، ويقرؤهم القرآن، فبعث عشرة من أصحابه معهم وأَمَّرَ عليهم عاصم بن ثابت، فلما كانوا بالرجيع غدروا

بهم، واستصرخوا عليهم بني لحيان من هذيل فأحاطوا بهم، فلجأ الصحابة العشرة إلى تلٍ مرتفع، فأعطاهم المشركون العهد إن نزلوا ألا يقتلوهم، فأبى عاصم النزول، وقاتل مع أصحابه حتى قُتِل، واستشهد منهم سبعة، فلما أرادوا أن يحتزوا رأسه ليذهبوا به إلى سلافة ويحصلوا على المكافأة، فبعث الله تعالى عليهم الدبر، فلم يدنُ منه أحدٌ إلا لدغته في وجهه، فحماه الله منهم ولم يجعل للمشركين عليه سبيلًا. وكان عاصمًا قد عهد لله أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا في حياته، فحفظه الله بعد وفاته.

وبقي ثلاثة أعطاهم الكفار العهد مرة أخرى، غير أنهم سرعان ما غدروا بهم بعد أن تمكنوا منهم، وقد قاومهم عبد لله بن طارق فقتلوه، واقتادوا الاثنين الآخرين إلى مكة، وهما خبيب وزيد بن الدثنة فباعوهما لقريش، وذلك في صفر سنة أربعة من الهجرة.

أما خبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل، ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيب قد قتله يوم بدر، فسجنوه فترة ثم خرجوا به إلى التنعيم ليقتلوه، فصلى ركعتين، ثم دعا عليهم وقال: (اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تُبقِ منهم أحدًا).

وأما زيد بن الدثنة فكان قد قتل أمية بن محرث يوم بدر، فابتاعه ابنه صفوان بن أمية، ليقتله بأبيه، وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد، أيسرك أن محمدًا عندنا نضرب عنقه، وإنك لفي أهلك؟ فقال: (والله ما يسرني أني في أهلي، وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه)، ثم قتله صفوان، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمدٍ محمدًا!

وقد حزن رسول الله ﷺ والمسلمون على أصحابهم حزنًا شديدًا، واحتسبوهم شهداء في سبيل الدعوة إلى الله. إلى أن جاءت فاجعة أخرى كانت أشد ألمًا.

بئر معونة

لم يكد المسلمون يتجاوزون حزنهم على شهداء الرجيع حتى جاءتهم في نفس الشهر مأساة بئر معونة، وذلك أن عامر بن الطفيل - زعيم من زعماء بني عامر - كان متكبرًا متغطرسًا، طامعًا في الملك، وكان قد علم أن النبي ﷺ ستكون له الغلبة على الجزيرة العربية، فجاء النبي ﷺ وقال: أخيرك يا محمد بين ثلاث خصال: أن يكون لك السهل، ولي أهل المدر، أو أن أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء. فرفض النبي ﷺ تلك المطالب الجاهلية.

وفي يوم من الأيام جاء إلى المدينة مُلاعِب الأسنّة[1] سيد بني عامر وعمّ عامر بن الطفيل، وقدّم إلى النبي الهدية، فعرض عليه النبي الإسلام فأبى أن يسلم، فقال النبي: فإني لا أقبل هدية من مشرك، فقال ملاعب الأسنة: فابعث إلى أهل نجد من شئت فأنا لهم جار. (أي ابعث من شئت من الدعاة إلى

(١) ملاعب الأسنة: هو أبو البراء عمرو بن مالك، سيد بني عامر، وسمي بملاعب الأسنة لمهارته في الضرب بالرماح يوم السوبان -وهو أحد أيام الجاهلية-، أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه.

أرض نجد؛ فإنهم سيكونون في حمايتي خلال دعوتهم للإسلام).

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا بئر معونة. وكانوا سبعين من خيار المسلمين يُعرَفون بالقراء، يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، ويحيون على هذا النسق الرتيب بين جهاد للحياة ورغبة في الآخرة.

فلما أمرهم الرسول بالمسير لإبلاغ رسالات الله، خرجوا، وما كانوا يعرفون أنهم يحثون الخطا إلى مصارعهم في أرض انتشر الغادرون في فجاجها. وحينما انتهى القراء إلى (بئر معونة) بعثوا أحدهم - حرام بن ملحان - إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر في هذه البقاع، فأعطاه كتاب النبي ﷺ الذي يدعوه فيه إلى الإسلام، فلم ينظر (عامر) في الكتاب وأمر رجلاً من أتباعه أن يغتال حامل الرسالة، فما شعر حرام إلا وطعنة نجلاء تخترق ظهره وتنفذ من صدره، وكأن هذه الشهادة المفاجئة لاقت رجلاً يتمناها من قديم، فقد صاح حرام على أثر ذلك: فزت ورب الكعبة!

ومضى عامر في غشمه، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم، فانضمت إليه قبائل (رِعل) و(ذَكوان) و(القارة)، فهجم بهم عامر على القراء الوادعين، ورأى هؤلاء الموت مقبلاً عليهم من كل صوب، فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون

عن أنفسهم دون جدوى، إذ استطاع الأعراب أن يغشوهم في رحالهم وأن يستأصلوهم عن آخرهم.

وكان في سرح القراء اثنان لم يشهدا هذه المأساة، وهما: عمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن عقبة، فلم يعرفا النبأ المحزن، إلا من أفواج الطير المتوحشة، التي انطلقت نحو المعسكر محومة حول الجثث الملقاة. فقالا: والله إن لهذه الطير لشأنًا. فأقبلا لينظرا فإذا القوم مضرجون في دمائهم. وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة! فأصر المنذر على النزول للمعسكر، فقاتل حتى قُتِل، وأما عمرو بن أمية فقد أُسِر، فلما عَلِم الغادر عامر بن الطفيل أنه من مضر، جز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه!

ورجع عمرو الضمري إلى المدينة، فلما كان بالقرقرة من الطريق وجد رجلين من بني كلاب، ظنهما من العدو فقتلهما، وكان لهما عهد من رسول الله ﷺ، فلما قدم المدينة وأخبر رسول الله ﷺ قال: قتلت قتيلين لأدينهما.

وقد حزن رسول لله ﷺ حزنا شديدًا على ما حدث في بئر معونة، وقنت ﷺ شهرًا كاملاً دبر كل صلاة داعيًا على قبائل بني سليم: على رِعل وذكوان وعصية.

إجلاء بني النضير

بموجب المعاهدة بين رسول الله ﷺ وبين يهود المدينة، ذهب ﷺ بعد حادثة بئر معونة إلى يهود بني النضير يستعينهم في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري بالخطأ حين ظنّ أنهما من الأعداء، إلا أن نار الحقد فيهم على رسول الإسلام والمسلمين لم تنطفئ يومًا، ووجدوا أن الفرصة قد باتت مواتية للظفر بما يريدون من قتل رسول الله ﷺ، ومن هنا عقدت يهود العزم على اغتيال النبي ﷺ غدرًا أثناء اجتماعه بهم، فأظهروا له الرضا بمعونته على الديّة، واستدرجوه ﷺ حتى جلس إلى جنب جدار من بيوتهم منتظرًا وفاءهم بما وعدوا، وفي تلك الأثناء خلا اليهود بعضهم ببعض يدبرون تفاصيل المكيدة، فقالوا: أيّكم يأخذ هذه الرّحى ويصعد فيلقيها على رأسه؟؟ فانبعث أشقاهم عمرو بن جحاش ليفعل ذلك، ولكن جبريل عليه السلام كان أسرع منه، فقد نزل ليخبر رسول الله ﷺ بما عزمت يهود، فقام ﷺ مسرعًا نحو المدينة، ثم لحقه أصحابه، فأخبرهم ﷺ بالمؤامرة وقرر إجلاءهم. واستدعى ﷺ محمد بن مسلمة وقال له: "اذهب إلي بني النضير فمُرهم أن

يخرجوا من المدينة ولا يساكنوني بها، وقد أجلّتهم عشرًا، فمن وجدت بعد ذلك ضربتُ عنقه".

لم يجد اليهود بدًّا من النزول على أمر رسول الله ﷺ، وأخذوا يتجهزون للرحيل، غير أن منافقي المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول أرسل إليهم: أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمدٍ ومن معه، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصونكم، ويموتون دونكم، وكذلك تنصركم قريظة وغطفان، فشعر اليهود بالقوة ورجعوا عن الخروج، وبعثوا إلى النبي ﷺ قائلين: إنا لن نخرج، فاصنع ما بدا لك. وقد أنزل الله في شأن هؤلاء المنافقين قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١٢﴾ [الحشر: ١١-١٢].

ولما وصل النبي ﷺ الرد بالتحدي وعدم الخروج، عقد العزم على قتالهم، فنهض ﷺ وأصحابه لمناجزة القوم وتحدّى من ينضم إليهم من قبائل اليهود الأخرى أو مشركي العرب، فالتجأ اليهود لحصونهم، فضرب رسول الله ﷺ عليهم حِصارًا وأمر بتقطيع نخيلهم، وقذف الله ﷻ في قلوبهم الرعب، وتخلى

عنهم المنافقون، فاستسلم يهود بني النضير لحكم رسول الله ﷺ فأجلاهم النبي ﷺ عن ديارهم وأذن لهم أن يحملوا معهم ما شاءوا من الأمتعة والأموال إلا السلاح، فحملوا ما استطاعوا، حتى قلّعوا الأبواب والشبابيك، والأوتاد وجذوع السقف، وحملوها فيما حملوا، ونزل أكابرهم بخيبر، ونزلت طائفة منهم بالشام. وقد أنزل الله ﷻ في إجلائهم سورة الحشر: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾[الحشر: ١ - ٤].

بدر الآخرة ودومة الجندل

ذكرنا أن أبا سفيان كان قد تواعد يوم أحد على حرب مع المسلمين في العام القادم، لكنه في الحقيقة لم ينشط للوفاء بهذا الميعاد، بل خرج من مكة متثاقلاً في ألفي مقاتل وهو يفكر في عاقبة قتال المسلمين؛ إنه يعلم جيدًا أنهم قد هُزِموا في بدر على كثرة عددهم، ولولا خطأ جيش المسلمين في أُحُد لَمَا استخلصوا النصر عليهم إلا بجهدٍ جهيد، ولذلك فإنه لّما وصل إلى الظهران أخذه الرعب، فقال لأصحابه: "يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا"... فانسحبوا دون أدنى معارضة!

أما رسول الله ﷺ فقد خرج في جيش من ألف وخمسمائة مقاتل إلى بدر حسب الموعد المتفق عليه، وأعطى عليّ بن أبي طالب اللواء، وانتظر مَقدم جيش مكة، فلم يأتوا! ومكث ﷺ في بدر ثمانية أيام ليمسح آخر ما تركت هزيمة أُحُد من غبار، وقفل جيش المسلمين راجعًا وقد هابهم كل عدو، وذلك في شعبان من السنة الرابعة للهجرة.

دومة الجَندل:

تقع على الحدود بين الحجاز والشام، على مسيرة ست عشرة ليلة من المدينة.

تاريخ الغزوة: ربيع أول من السنة الخامسة للهجرة.

سبب الغزوة: تأمين حدود المدينة من الشمال؛ فقد ترامى إلى علم رسول الله ﷺ أن القبائل في دومة الجندل تغير على القوافل التي تمر بها، وتتعرض لها بالأذى والظلم، وأن هذا الجمع من الأعراب يفكر في غزو المدينة، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في ألف مقاتل، فلمّا وصل إليهم فرّوا مذعورين، وتركوا ماشيتهم ونعمهم غنيمة باردة للمسلمين.

والرعب جند من جنود الله، سخره الله تعالى لنبيه ﷺ، فانهزم عنه أعداؤه دون أدنى قتال، يقول ﷺ: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وأَيُّمَا رَجُلٍ مِن أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ، وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ كَافَّةً، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ) [متفق عليه].

وأقام رسول الله ﷺ في دومة الجندل عدة أيام يبعث السرايا ويبث البعوث، ثم رجع إلى المدينة وقد قويت شوكة المسلمين في الجزيرة العربية بأسرها.

غزوة بني المصطلق

(وتُسمَّى أيضًا غزوة المُرَيسيع)

التاريخ: شعبان سنة ٥ هـ.

المكان: ماء المريسيع أعالي وادي قديد، بالقرب من مكة المكرمة.

سبب الغزوة: كانت قبيلة بني المصطلق ممالئة لقريش، وقد بلغ رسول الله ﷺ أنهم يتجهزون لقتاله، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضِرار ينظم جموعهم، وقد أرسل ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي للتأكد من نيتهم فأظهروا له عزمهم على القتال، فخرج النبي ﷺ إليهم في سبعمائة مقاتل وثلاثين فارسًا ليطفئ تلك الفتنة في مهدها.

زواجه ﷺ بأم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

أحرز المسلمون النصر على بني المصطلق دون مقاومة تُذكَر، وسقطوا جميعًا أسرى في أيدي المسلمين، وكان من بين سبايا بني المصطلق جويرية بنت الحارث، وكانت بركة على قومها،

تقول أم المؤمنين عائشة ﵂: "لَمَّا سبى رسولُ الله ﷺ سبايا بني المصطَلِق وقَعت جويريةُ بنتُ الحارثِ في السَّهم لثابتِ بنِ قيس بنِ الشَّمَّاس أو لابن عمِّه، فكاتَبَتْ على نفسِها وكانت امرأةً حُلوةً مُلاحةً لا يكادُ يراها أحدٌ إلَّا أخَذَت بنفسه، فأتَتْ رسولَ الله ﷺ تستعينُه في كتابتِها، فوالله ما هو إلَّا أنْ وقَفَت على بابِ الحجرةِ فرأَيْتُها كرِهْتُها، وعرَفْتُ أنَّ رسولَ الله ﷺ سيرى منها مثلَ ما رأَيْتُ، فقالت جويريةُ: (يا رسولَ الله كان مِن الأمرِ ما قد عرَفْتَ فكاتَبْتُ نفسي فجِئْتُ رسولَ الله ﷺ أستعينُه)، فقال رسولُ الله: (أو ما هو خيرٌ مِن ذلك؟) فقالت: وما هو؟ قال: (أتزوَّجُك وأقضي عنك كتابتَك). فقالت: نَعم. قال: (قد فعَلْتُ). قالت: فبلَغ المسلمينَ ذلك قالوا: أصهارُ رسولِ الله ﷺ؟! فأرسَلوا ما كان في أيديهم مِن سبايا بني المصطلِق قالت: فلقد عُتِق بتزويجِه مئةُ أهلِ بيتٍ مِن بني المصطلِق قالت: (فما أعلَمُ امرأةً كانت أعظَمَ بركةً على قومِها منها)"[1]. وجاء الحارث بن أبي ضرار إلى المدينة بفداء ابنته، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأسلم، ودخلت القبيلة كلها في دين الله وأعتِقت بمصاهرة رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه أبو داود في سننه: (٣٩٣١)، وشعيب في المسند: (٢٦٣٦٥).

وفي تلك الغزوة وقع من المنافقين حادثتان تبينان سوء سريرتهم وحقدهم على الإسلام وأهله.

أولاهما: أن رجلاً من حلفاء المهاجرين وآخر من حلفاء الأنصار ازدحما على ماء المريسيع، فضرب المهاجري الأنصاري، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! واجتمع ناس من الطرفين، فبادرهم رسول الله ﷺ وقال: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة"، فعاد الناس إلى رشدهم ورجعوا.

وكانت جماعة من المنافقين قد خرجت في هذه الغزوة، لم تخرج من قبل، ومعهم رئيسهم عبد الله بن أبي، فلما بلغه الخبر استشاط غضبا، وقال: (أوَقَد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)، أراد بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله -والعياذ بالله- وأخذ يدير لذلك الفتن، حتى قال لرفقائه: (هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم لتحولوا إلى غير داركم).

وكان معهم حينما قال ما قال شاب مؤمن قوي الإيمان، يقال له: زيد بن أرقم، لم يصبر على هذا الهراء حتى أبلغ

رسول الله ﷺ الخبر، فدعا ﷺ ابن أبي، وسأله عن ذلك، فحلف أنه لم يقل شيئًا مما بلغه، فأنزل الله سورة المنافقين، وفضح كذبه إلى يوم الدين.

وكان لهذا المنافق ابن، واسمه أيضًا عبدالله، وكان مؤمنًا خالصًا، محبًا لله ولرسوله ﷺ، فوقف على نقب المدينة مستلًّا سيفه، وقال لأبيه رأس المنافقين: "والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله، فإنه العزيز وأنت الذليل"، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل إليه أن يأذن له، فخلى سبيله، وبذلك انتهت هذه الفتنة.

وأما الحادثة الثانية فكانت "حادثة الإفك"، وسنتحدث عنها في الفصل القادم.

حادثة الإفك

تحدثنا في الفصل السابق عن غزوة بني المصطلق وموقف المنافقين منها، وكيف أن محاولة رأس المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول لإثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار باءت بالفشل، إلا أن هذا لم يثنِ عزمه عن إحداث بلبلة جديدة تنم عن حقده الدفين، مصوِّبًا سهامه هذه المرة نحو "بيت رسول الله ﷺ".

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كانَ رَسولُ الله ﷺ إذَا أرَادَ أنْ يَخْرُجَ أقْرَعَ بيْنَ أزْوَاجِه، فأيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بهَا رَسولُ الله ﷺ معهُ. قالَتْ عَائِشَةُ: فأقْرَعَ بيْنَنَا في غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي (وهي غزوة بني المصطلق)، فَخَرَجْتُ مع رَسولِ الله ﷺ بَعْدَما نَزَلَ الحِجَابُ، فأنَا أُحْمَلُ في هَوْدَجي، وأُنْزَلُ فِيه، فَسِرْنَا حتَّى إذَا فَرَغَ رَسولُ ﷺ من غَزْوَتِه تلكَ وقَفَلَ، ودَنَوْنَا من المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بالرَّحِيل، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بالرَّحِيل فَمَشيتُ حتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْني أقْبَلْتُ إلى رَحْلي، فَإذَا عِقْدٌ لي مِن جَزْعِ ظَفَارِ (نوع من الخرز) قَدِ انْقَطَعَ، فَالْتَمَسْتُ

عِقْدي وحَبَسَني ابْتِغَاؤُهُ، وأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الذي كُنْتُ رَكِبْتُ، وهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وكانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا، لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّما تَأْكُلُ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ (أي القليل من الطعام)، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ، وكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الجَمَلَ وسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَما اسْتَمَرَّ الجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وليسَ بِهَا دَاعٍ، ولَا مُجِيبٌ فأَمَمْتُ مَنْزِلِي الذي كُنْتُ بِهِ، وظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وكانَ صَفْوَانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِن وراءِ الجَيْشِ، فأَدْلَجَ فأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وكانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ باسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وجْهِي بِجِلْبَابِي، ووَاللهِ ما كَلَّمَنِي كَلِمَةً ولَا سَمِعْتُ منه كَلِمَةً غيرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ، حتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ بَعْدَما نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنِ هَلَكَ، وكانَ الذي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ.

انتشار الشائعة بالمدينة:

تقول عائشة - رضي الله عنها -: "فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ

حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، والنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لا أَشْعُرُ بِشيءٍ مِن ذلكَ وهو يَرِيبُنِي فِي وجَعِي، أَنِّي لا أَعْرِفُ مِن رَسولِ الله ﷺ اللُّطْفَ الذي كُنْتُ أَرَى منه حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّما يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسولُ الله ﷺ فيُسَلِّمُ ثُمَّ يقولُ: كيفَ تِيكُمْ؟ (أي: كيف حالها؟) ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَاكَ الذي يَرِيبُنِي ولَا أَشْعُرُ بالشَّرِّ حتَّى خَرَجْتُ بَعْدَما نَقَهْتُ، فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ وهو مُتَبَرَّزُنَا، وكُنَّا لا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلى لَيْلٍ، وذلكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِن بُيُوتِنَا، وأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي التَّبَرُّزِ قِبَلَ الغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَّى بالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وأُمُّ مِسْطَحٍ وهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بنِ عبدِ مَنَافٍ، وأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وابنُهَا مِسْطَحُ بنُ أُثَاثَةَ، فأَقْبَلْتُ أَنَا وأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي، وقَدْ فَرَغْنَا مِن شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا، فَقالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ (أي: تدعو عليه)، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ ما قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ قالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ أَوَلَمْ تَسْمَعِي ما قالَ؟ قالَتْ: قُلْتُ: وما قالَ؟ فأَخْبَرَتْنِي بقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلى بَيْتِي، ودَخَلَ عَلَيَّ رَسولُ الله ﷺ، ثُمَّ قالَ: كَيفَ تِيكُمْ فَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ، قالَتْ: وأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِن قِبَلِهِمَا، قالَتْ: فأَذِنَ لِي رَسولُ الله ﷺ، فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يا أُمَّتَاهْ ما يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟

قالَتْ: يا بُنَيَّةُ هَوِّني عَلَيْك، فَوَالله لَقَلَّما كَانَت امْرَأَةٌ قَطُّ وضيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، ولَهَا ضَرَائِرُ إلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قالَتْ: فَقُلْتُ سُبْحَانَ الله، أَوَلقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بهذا؟ قالَتْ: فَبَكَيْتُ تلكَ اللَّيْلَةَ حتَّى أَصْبَحْتُ لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ، ولَا أَكْتَحِلُ بنَوْمٍ، حتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

كاد قلب أمنا عائشة ﵂ ينفطر من شدة البكاء وإحساسها بالظلم. 💔💔

فكيف تعامل رسول الله ﷺ مع تلك الحادثة؟؟

○ بشرية النبي ﷺ:

تعامل رسول الله مع حادثة الإفك ببشريته، فهو ﷺ لا يعلم الغيب، ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]؛ ولذلك انتظر ﷺ لعل أن ينزل الوحي معلنًا براءة زوجته... ومرت الأيام ثقالًا، والشائعة تزداد على ألسنة بعض الناس كالنار في الهشيم، فلما استبطأ ﷺ الوحي ومر على الحادثة ما يقارب الشهر لجأ النبي ﷺ إلى مشورة أصحابه. تقول السيدة عائشة ﵂ استكمالًا لحديث الإفك: "فَدَعَا رَسولُ الله ﷺ عَلِيَّ بنَ أبي طَالِبٍ وأُسَامَةَ بنَ زَيْدٍ ﵄ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْتَأْمِرُهُما في فِرَاقِ أَهْلِهِ، قالَتْ:

فأمَّا أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ فأشَارَ علَى رَسولِ الله ﷺ بالَّذي يَعْلَمُ مِن بَرَاءَةِ أهْلِه، وبالَّذي يَعْلَمُ لهمْ في نَفْسِه مِنَ الوُدِّ، فَقالَ: يا رَسولَ الله، أهْلَكَ ولَا نَعْلَمُ إلَّا خَيْرًا، وأمَّا عَلِيُّ بنُ أبي طَالِبٍ فَقالَ: يا رَسولَ الله لَمْ يُضَيِّقِ الله عَلَيْكَ، والنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وإنْ تَسْأَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قالَتْ: فَدَعَا رَسولُ الله ﷺ بَرِيرَةَ، فَقالَ: أيْ بَرِيرَةُ، هلْ رَأَيْتِ مِن شيءٍ يَرِيبُكِ؟ قالَتْ بَرِيرَةُ: لا والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، إنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أمْرًا أغْمِصُهُ عَلَيْهَا (أي أعيبه عليها)، أكْثَرَ مِن أنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عن عَجِينِ أهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسولُ الله ﷺ، فَاسْتَعْذَرَ يَومَئِذٍ مِن عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ (أي: مَن يعذره إن جزاه على سوء صنيعه؟)، قالَتْ: فَقالَ رَسولُ الله ﷺ وهو علَى المِنْبَرِ: يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ مَن يَعْذِرُني مِن رَجُلٍ قدْ بَلَغَنِي أذَاهُ في أهْلِ بَيْتِي، فَوَالله ما عَلِمْتُ علَى أهْلِي إلَّا خَيْرًا، ولقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا ما عَلِمْتُ عليه إلَّا خَيْرًا، وما كانَ يَدْخُلُ علَى أهْلِي إلَّا مَعِي فَقَامَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ الأنْصَارِيُّ، فَقالَ: يا رَسولَ الله أنَا أعْذِرُكَ منه، إنْ كانَ مِنَ الأوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وإنْ كانَ مِن إخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أمْرَكَ، قالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ وهو سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وكانَ قَبْلَ ذلكَ رَجُلًا صَالِحًا، ولَكِن احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ الله لا تَقْتُلُهُ، ولَا تَقْدِرُ علَى

قَتْلِـهِ، فَقَـامَ أُسَـيْدُ بـنُ حُضَـيْرٍ وهـو ابـنُ عَـمِّ سَـعْدِ بـن مُعَـاذ، فَقـالَ لِسَـعْد بـنِ عُبَـادَةَ: كَذَبْـتَ لَعَمْـرُ الله لَنَقْتُلَنَّـهُ، فإنَّـكَ مُنَافِـقٌ تُجَـادِلُ عَـنِ الْمُنَافِقِـينَ، فَتَشَـاوَرَ الحَيَّـانِ الأَوْسُ والخَـزْرَجُ (قامـوا للعـراك) حتَّـى هَمُّـوا أنْ يَقْتَتِلُـوا، ورَسـولُ الله ﷺ قَائِـمٌ عـلى المِنْبَرِ، فَلَـمْ يَـزَلْ رَسـولُ الله ﷺ يُخَفِّضُهُـم حتَّـى سَـكَتُوا، وسَـكَتَ، قالَـتْ: فَبَكَيْـتُ يَومِـي ذلـكَ لا يَرْقَـأُ لي دَمْـعٌ ولَا أَكْتَحِـلُ بنَـوْم، قالَـتْ: فأَصْبَـحَ أَبَـوَايَ عِنـدي وقـدْ بَكَيْـتُ لَيْلَتَـيْنِ ويَوْمًـا لا أَكْتَحِـلُ بنَـوْمٍ، ولا يَرْقَـأُ لي دَمْـعٌ، يَظُنَّـانِ أنَّ البُـكَاءَ فَالِـقٌ كَبِـدِي.

○ الوحي ينزل ببراءة الطاهرة:

قالَـتْ: "فَبيْنَـما هُمـا جَالِسَـانِ عِنـدِي - أي أمهـا وأبيهـا -، وأَنَـا أَبْكِـي فَاسْـتَأْذَنَتْ عَـلَيَّ امْـرَأَةٌ مِـنَ الأَنْصَـارِ، فأذِنْـتُ لَهَـا فَجَلَسَـتْ تَبْكِـي مَعِـي، قالَـتْ: فَبيْنَـا نَحْـنُ عـلَى ذلـكَ، دَخَـلَ عَلَيْنَا رَسـولُ الله ﷺ فَسَـلَّمَ ثُـمَّ جَلَـسَ، قالَـتْ: ولَمْ يَجْلِـسْ عِنـدِي مُنْـذُ قيـلَ مـا قيـلَ قَبْلَهَـا، وقـدْ لَبِـثَ شَـهْرًا لا يُوحَـى إلَيْـهِ في شَـأْني، قالَـتْ: فَتَشَـهَّدَ رَسـولُ الله ﷺ حِـينَ جَلَـسَ، ثُـمَّ قـالَ: أَمَّـا بَعْـدُ يـا عَائِشَـةُ، فإنَّـه قـدْ بَلَغَنِـي عَنْـك كَـذَا وكَـذَا، فـإنْ كُنْـتِ بَرِيئَـةً فَسَـيُبَرِّئُك الله، وإنْ كُنْـتِ أَلْمَمْـتِ بذَنْـبٍ فَاسْـتَغْفِري الله وتُـوبِي إلَيْـه، فـإنَّ العَبْـدَ إذَا اعْـتَرَفَ بذَنْبِـه ثُـمَّ تَـابَ إلى الله تَـابَ الله عليـه، قالَـتْ: فَلَـما قَـضى رَسـولُ الله ﷺ مَقالَتَـهُ قَلَـصَ دَمْعِـي حتَّـى مـا أُحِـسُّ منـه قَطْـرَةً، فَقُلْـتُ لأَبِي:

أجبْ رَسولَ الله ﷺ فيما قالَ، قالَ: والله ما أدْري ما أقُولُ لِرَسولِ الله ﷺ، فَقُلْت لِأُمِّي: أجيبي رَسولَ الله ﷺ، قالَتْ: ما أدْري ما أقُولُ لِرَسولِ الله ﷺ، قالَتْ: فَقُلتُ وأَنا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لا أقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ: إنِّي والله لقَدْ عَلِمْتُ لقَدْ سَمِعْتُمْ هذا الحَدِيثَ، حتَّى اسْتَقَرَّ في أنْفُسِكُمْ وصَدَّقْتُمْ به فَلَئِنْ، قُلتُ لَكُمْ: إنِّي بَرِيئَةٌ، والله يَعْلَمُ أنِّي بَرِيئَةٌ لا تُصَدِّقُوني بذلكَ، ولَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بأَمْرٍ والله يَعْلَمُ أنِّي منه بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، والله ما أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إلَّا قَوْلَ أبي يُوسُفَ، قالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. قالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ علَى فِرَاشِي، قالَتْ: وأَنا حِينَئِذ أعْلَمُ أنِّي بَرِيئَةٌ، وأنَّ الله مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، ولَكِنْ والله ما كُنْتُ أظُنُّ أنَّ الله مُنْزِلٌ في شَأْنِي وحْيًا يُتْلَى، ولَشَأْنِي في نَفْسِي كانَ أحْقَرَ مِن أنْ يَتَكَلَّمَ الله فِيَّ بأَمْرٍ يُتْلَى، ولَكِنْ كُنْتُ أرْجُو أنْ يَرَى رَسولُ الله ﷺ في النَّومِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي الله بهَا، قالَتْ: فَوَالله ما رَامَ رَسولُ الله ﷺ، ولَا خَرَجَ أحَدٌ مِن أهْلِ البَيْتِ حتَّى أُنْزِلَ عليه، فأخَذَهُ ما كانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حتَّى إنَّه لَيَتَحَدَّرُ منه مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ، وهو في يَومٍ شَاتٍ - أي: يوم شديد البرد، وتقصد هنا شدائد الوحي -، مِن ثِقَلِ القَوْلِ الذي يُنْزَلُ عليه، قالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عن رَسولِ الله ﷺ سُرِّيَ عنْه وهو يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بهَا: يا عَائِشَةُ، أمَّا الله ﷻ فقَدْ بَرَّأَكِ

فَقالَـتْ أُمِّـي: قُومِـي إلَيْـهِ، قالَـتْ: فَقُلـتُ: لا واللهِ لا أَقُـومُ إلَيْـهِ، ولَا أَحْمَـدُ إلَّا اللهَ ﷻ، فأنْـزلَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العـشرَ الآيَـاتِ كُلَّهَـا.

فوائد من حادثة الإفك

١ - عامل الناس كما تحب أن يعاملك الله:

كان مِسْطَح بـنِ أُثَاثَـةَ ممـن زلَّ وخـاض في حادثـة الإفـك، وكان أبـو بكـر الصدِّيـق ينفـق عليـه لِقَرَابَتِـه منـه وفَقْـرِه، فقـال أبـو بكـر: واللهِ لا أُنْفِـقُ عَـلى مِسْـطَح شـيئًا أبَـدًا بَعْـدَ الـذي قـالَ لعَائِشَـةَ مـا قـالَ، فأنْـزَلَ اللهُ تعـالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النـور: ٢٢]. فقـالَ أبـو بَكْـر: (بَـلَى واللهِ إنِّي أُحِـبُّ أنْ يَغْفِـرَ اللهُ لِي)، فَرَجَـعَ إلى مِسْـطَحٍ النَّفَقَـةَ الَّتـي كانَ يُنْفِـقُ عليـه، وقـالَ: (واللهِ لاَ أَنْزِعُهَـا منـه أبَـدًا).

فإذا أردت أن يعفوَ الله عنك فاعفُ عن عباد الله.

٢- احمِ نفسك من الشائعات:

احـمِ سـمعك وبـصرك ولسـانك مـن الشـائعات لئـلا تهلـك، واحـترزَ مـن أعـراض المسـلمين! قالَـتْ عَائِشَـةُ -رضي الله عنهـا-: كانَ رَسـولُ اللهِ ﷺ يَسْـأَلُ زَيْنَـبَ ابْنَـةَ جَحْـشٍ عـن أمْـرِي، فَقـالَ:

يـا زَيْنَـبُ مَـاذَا عَلِمْـتِ أَوْ رَأَيْـتِ؟ فَقالَـتْ: (يـا رَسـولَ الله أَحْمِـي سَـمْعِي وبَـصَرِي، مـا عَلِمْـتُ إِلَّا خَـيْرًا)، قالَـتْ: وهـي الَّتـي كَانَـتْ تُسَـامِينِي مِـن أَزْوَاجِ رَسـولِ الله ﷺ، فَعَصَمَهَـا الله بالـوَرَعِ وطَفِقَـتْ أُخْتُهَـا حَمْنَـةُ تُحَـارِبُ لَهَـا، فَهَلَكَـتْ فِيمَـن هَلَـكَ مِـن أَصْحَـابِ الإِفْـكِ..

٣- رُبَّ هين هو عند الله عظيم:

طلـق اللسـان في سِـيَرَ المسـلمين مهلكـة لا ينجـو منهـا إلا المتقـون. يقـول النبـي ﷺ: (إِنَّ العَبْـدَ لَيَتَكَلَّـمُ بالكَلِمَـةِ، مـا يَتَبَـيَّنُ فيهـا، يَـزِلُّ بهـا في النَّـارِ أَبْعَـدَ ممَّـا بـيْنَ المَـشْرِقِ) [رواه البخاري].

٤- حادثـة الإفـك مـن دلائـل النبـوة وصحـة القـرآن الكريـم:

فلئـن كان القـرآن مـن افـتراء النبـي ﷺ لسـارع بالـذود عـن عرضـه وأهـل بيتـه، ولكنـه لبـث شـهرًا ينتظـر نـزول الوحـي من الله ﷻ، وتعامـل مـع تلـك الحادثـة ببشريتـه حتـى نـزل القـرآن فاصـلاً.

غزوة الأحزاب

(وتسمى أيضًا بغزوة الخندق)

تاريخها: شوال من السنة الخامسة للهجرة.

موقعها: الحدود الشمالية للمدينة المنورة.

? سببها: سَعَى يهود بني النضير بعد إجلائهم إلى خيبر للثأر من النبي ﷺ والمسلمين، فكوّنوا وفدًا برئاسة حيي بن أخطب لاستثارة كفار العرب ضد المسلمين وقطع شأفتهم، فانطلقوا إلى مكة يحثون كفار قريش ومناوئيهم على قتال المسلمين، ويعِدُونهم بالوقوف إلى جانبهم ويثيرون عزيمتهم، وأعمى الحقد قلوبهم لدرجة أنهم قالوا إن عقائد المشركين الوثنية خير من دين محمد ﷺ، وإن رضا الله في التخلص منه ومن معه. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١ - ٥٢].

جيش الأحزاب:

نجحت يهود بني النضير في مسعاها، فاتفقت مع قريش وبطونها وقبائل نجد من تهامة وغطفان -التي طمعت في خيرات المدينة- على التكالب جميعًا على المسلمين في المدينة وقطع دابرهم بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل.

ولم تكن تلك الأخبار ببعيدة عن المدينة المنورة، فقد علم رسول الله ﷺ بمكرهم من خلال رصده المستمر لتحركات اليهود وقريش، فأيقن أن العرب قد عقدت عزمها على رمي المسلمين بقوسٍ واحدة، ورأى أن يجمع أصحابه ليأخذ رأيهم في هذا الموقف العصيب.

الخندق:

أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على النبي ﷺ بحفر خندق حول المدينة ليحميهم من هجوم المشركين، وهو أسلوب عسكري جديد لم تعهده العرب من قبل، فأعجب رسول الله برأيه، وعزم ﷺ على حفر الخندق في الجهة الشمالية من المدينة المنورة؛ لأنها الجهة الوحيدة المكشوفة للمشركين، أما بقية الجهات فهي محصنة منيعة، وعسيرة على دخول الأعداء، ففي الجهتين الشرقية والغربية حرة واقم وحرة الوبرة، والحرة: صخور سود

كبيرة تعمل كمصدات طبيعية وموانع جغرافية، وأما الجهة الجنوبية ففيها البيوت المتلاصقة وآطام بني قريظة وحصونهم.

فدفع رسول الله ﷺ النساء والذراري إلى بعض حصون الجنوب ليكونوا في مأمن، ثم انطلق ﷺ ومعه أصحابه رضي الله عنهم يحفرون الخندق تحت ظروف شديدة الصعوبة من البرد والجوع، وجعل ﷺ يكسر الصخر ويحمل التراب، ويرتجز ليشجع رجاله ويحمسهم قائلاً:

والله لولا الله ما اهتدينا.. ولا تصدقنا ولا صلينا..
فأنزلن سكينة علينا.. وثبت الأقدام إن لاقينا..
إن الأعادي قد بغوا علينا.. وإن أرادوا فتنةً أبينا..

وتلك هي صفات القيادي الناجح، أن تكون يده بأيدي رجاله، يتواجد معهم في المواقع، يشجعهم ويدفعهم إلى الخير، وثبت صحابة رسول الله ﷺ وتمسكوا بأماكنهم لا يبارحوها إلا لضرورة تعرض لهم، فكانوا يستأذنون نبيهم ﷺ في قضائها ومن ثَمَّ يعودون إلى أماكنهم صابرين محتسبين طائعين لله ﷻ ولرسوله ﷺ. فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى فِي أُولَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢]. وأما المنافقون فكان لهم شأن آخر كعادتهم: غائبون في الشدائد، هاربون إذا جدَّ الجد، وبالفعل فقد أخذوا يتسللون من أعمال الحفر بلا استئذان أو تقديم أعذار لرسول الله ﷺ.

وجاءت قريش ومعها أحلافها من غطفان ونجد ويهود بني النضير، فاندهشوا إذ وجدوا الخندق أمامهم؛ فهم لم يعهدوا مثل هذا الأمر من قبل، غير أنهم لم ييأسوا فرابضوا أمام الخندق، وعقد رسول الله الدوريات ﷺ لمراقبة الخندق ليلاً ونهارًا لصد أي هجوم محتمل، وقد وقع فعلاً عدد من المناوشات، فحاول عكرمة بن أبي جهل اقتحام الخندق، إلا أن علي بن أبي طالب تصدى له، وتطايرت الرماح والنبال بين الفريقين، حتى لم يكد يغمض للصحابة جفن، ولم يستطعيوا الإتيان بالصلاة في أوقاتها. ولقد اشتد الهجوم في أحد الأيام حتى غربت الشمس، فضاعت على النبي ﷺ صلاة العصر، فدعا عليهم قائلا: (مَلأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وقُبُورَهُمْ نَارًا، شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الوُسْطَى حتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ)[1]. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل جاءت الأخبار بنقض يهود بني قريظة لعهدهم مع رسول الله ﷺ، وهنا أصبح المسلمون في ورطة، الأحزاب

(١) متفق عليه.

أمامهم وبنو قريظة خلفهم، والنساء والذراري مكشوف أمرهم، والجوع والعطش استبدا بالجميع، فماذا هم فاعلون؟

إزاء تلك الشدائد المتلاحقة، والمحن المتعاقبة، لم يهتز المسلمون، ولم يرتابوا ولو للحظة في وعد الله تعالى بنصرة دينه، بل زادتهم إيمانًا ويقينًا وثقةً بالله ﷻ، فاستبشروا وتلمّحوا بشائر النصر في اشتداد الخطب، واقتراب الفرج مع ضيق الكرب، فسنة الله جارية في البلاء قبل التمكين، وفي التمييز بين الصادقين والكاذبين. يقول عز من قائل: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. وأما المنافقون ومن تبعهم من الكذابين، فلم يكتفوا بتخاذلهم وتسللهم هاربين، بل أخذوا يفتون في عضد المؤمنين، وينشرون الأراجيف، ويقولون: (ارجعوا، فلا قِبَل لنا بهم، مهما فعلتم فلن تستطيعوا التغلب عليهم)، وهكذا عادة المرجفين في كل وقت وحين، ففضح الله مقالتهم إلى يوم الدين، ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ

ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ۞ [الأحزاب: ١٢ - ٢٠].

واستمر الحصار حول المدينة قرابة الشهر، واشتدت هجمات الأحزاب بعد نقض بني قريظة لعهدها، فاستشهد الطفيل بن النعمان ﷺ، وأصيب سعد بن معاذ ﷺ في أكحله[1]، فجعل ﷺ يدعو الله ويقول: (اللهمَّ إنْ كنتَ أبقيتَ من حَربِ قُرَيشٍ شيئًا فأبْقِني لها؛ فإنَّه لا قَومَ أحَبُّ إلَيَّ مِن أنْ أُجاهِدَهم فيكَ مِن قَومٍ آذَوْا نَبيَّكَ وكَذَّبوه وأخرَجوه، اللهمَّ إنْ كنتَ وضَعتَ الحَربَ بَيْنَنا وبيْنَهم، فاجعَلْها لي شَهادةً، ولا تُمِتْني حتى تُقِرَّ عَيني مِن بَني قُرَيظةَ).

(١) الأكحل: عرق في الذراع، إذا اقتطع لا يرقأ له دم.

لم يجد رسول الله ﷺ بدًّا من اللجوء إلى الحيلة؛ فإن الحرب خدعة؛ فاتخذ عددًا من التدابير:

١- الصلح مع غطفان:

أرسل رسول الله ﷺ في سرية تامة إلى رؤساء غطفان دون قريش أن ائتوني لنتصالح؛ وذلك لعلمه أنه ما حملهم على المشاركة في هذا الهجوم إلا الطمع في خيرات المدينة؛ فلا ريب أن يقبلوا بأي عرض يعرضه عليهم رسول الله ﷺ ما دام سيصب في مصلحتهم ويرضي أطماعهم.

واستجاب القائدان الغطفيان: عيينة بن حصن والحارث بن عوف، لطلب رسول الله ﷺ فأتوه مستخفين، وتعاهدا معه ﷺ على ترك قريش والانسحاب على أن يعطيهم ثلث تمر المدينة، وتم الاتفاق.

٢- الوقيعة بين قريش واليهود:

ومن نعمة الله على رسوله ﷺ وكمال تأييده أن أرسل إليه نعيم بن مسعود الغطفاني ليعلن توبته ويشهر إسلامه بين يديه، والذي قال له: (يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت)، فقال له النبي ﷺ: (إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة).

واستطاع نعيم ﷺ إذ كتم إسلامه أن يثير الوقيعة بين قريش وبني قريظة، فذهب إلى اليهود وقال لهم: (إني لكم ناصح، إن قريشًا قد عزمت على الانسحاب وترككم لمحمد، فلا بدّ أن تطلبوا من قريش رهائن كي تضمنوا ألا تفر وتدعكم)، ثم ذهب قريشًا فقال لهم: (إن اليهود قد عزموا على طلب رهائن منكم ليقدموهم إلى محمد كثمن لعودتهم إلى صلحهم معه)، وانطلت الحيلة على كلا الفريقين فوقع الشك بينهم وتفرق شملهم.

٣- استطلاع وضع العدو:

بعد الصلح مع غطفان، وتأليب قريش على اليهود أراد رسول الله ﷺ أن يستطلع وضع الأعداء، فأرسل حذيفة بن اليمان ﷺ كي يندس خفية في معسكرهم، واستطاع حذيفة أن يتسلل بينهم ورأى فيهم ما يقر العين ويشرح الصدر، فقد استبد بهم اليأس، وانسحبت غطفان، وأرسل الله ﷻ عليهم ريحًا شديدة البرد، فانكفأت قدورهم، وطاحت خيامهم، ثم قام فيهم أبو سفيان فقال: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ، لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَالْخُفُّ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمْ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ شِدَّةِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ).

ومضى الأحزاب، وبقى الإسلام، وعاد حذيفة ﷺ إلى رسول الله ﷺ ببشائر الفرج، فألْبَسَه رَسولُ الله ﷺ مِن فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عليه يُصَلِّي فِيهَا؛ لشدة فرحته بما أنجز الله له من وعد، ثم قال ﷺ: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا).

ومن بركات تلك الغزوة ما حدث بين يدي رسول الله ﷺ من معجزة تكثير الطعام، وكان الجوع قد اشتد على المسلمين في تلك الغزوة، حتى ليربطوا بطونهم ويضعوا عليها الحجر، وأشفق جابر بن عبد الله ﷺ على رسول الله ﷺ مما أصابه من الجوع، فعزم على دعوته ﷺ وحده إلى الطعام، غير أن رسول الله ﷺ انطلق إلى بيته ومعه الصحابة جميعًا! عن جابر بن عبد الله قال: (لَمَّا حُفِرَ الخَنْدَقُ رَأَيْتُ بالنَّبيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَانْكَفَأْتُ إلى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: هلْ عِنْدَكِ شَيءٌ؟ فإنِّي رَأَيْتُ برَسولِ الله ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فأخْرَجَتْ إلَيَّ جِرَابًا فيه صَاعٌ من شَعِيرٍ، ولَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، فَفَرَغَتْ إلى فَرَاغِي، وقَطَّعْتُهَا في بُرْمَتِهَا، ثُمَّ ولَّيْتُ إلى رَسولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: لا تَفْضَحْنِي برَسولِ الله ﷺ وبمَن معهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: يا رَسولَ الله، ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وطَحَنَّا صَاعًا من شَعِيرٍ كانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أنْتَ ونَفَرٌ معكَ، فَصَاحَ النَّبيُّ ﷺ فَقَالَ: يا أَهْلَ الخَنْدَقِ، إنَّ جَابِرًا قدْ صَنَعَ سُورًا، فَحَيَّ هَلاً بِكُمْ، فَقَالَ رَسولُ

الله ﷺ: لا تُنْزِلُـن بُرْمَتَكُـم، ولَا تَخْبُـزنَّ عَجينَكُـمْ حتَّى أجـيءَ. فَجئْتُ وجَـاءَ رَسـولُ الله ﷺ يَقْـدُمُ النَّـاسَ حتَّـى جِئْـتُ امْـرَأتي، فَقَالَـتْ: بـكَ وبـكَ، فَقُلـتُ: قـدْ فَعَلْـتُ الـذي قُلْـت، فأخْرَجَـتْ لـه عَجينًـا فَبَصَـقَ فيـه وبَـارَكَ، ثُـمَّ عَمَـدَ إلى بُرْمَتِنَـا فَبَصَـقَ وبَـارَكَ، ثُـمَّ قَـالَ: ادْعُ خَابـزَةً فَلْتَخْبـزْ مَعِـي، واقْدَحـي مِـن بُرْمَتِكُـمْ ولَا تُنْزِلُوهَـا، وهُـمْ أَلْـفٌ، فَأُقْسِـمُ بـالله لقَـدْ أكَلُـوا حتَّـى تَرَكُـوهُ وانْحَرَفُـوا، وإنَّ بُرْمَتَنَـا لَتَغِـطُّ كـما هـي، وإنَّ عَجِينَنَـا لَيُخْبَـزُ كـما هُـوَ)[1]... فـأكل أهـل الخنـدق جيمعًـا ببركـة رسـول الله ﷺ.

(١) أخرجه البخاري: (٤١٠٢).

غزوة بني قريظة

لم يكد رسول الله ﷺ ينصرف من الخندق حتى أتاه جبريل عليه السلام يأمره بحمل السلاح مرة أخرى؛ فإن ربه ﷻ يأمره بالذهاب إلى قريظة. عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: "لَمَّا رجَعَ رسولُ الله ﷺ من الخَنْدقِ وضَعَ السِّلاحَ، فاغتَسَلَ، فأتاهُ جبريلُ وهو يَنفُضُ رَأسَه من الغُبارِ، فقال: وضَعْتَ السِّلاحَ؟ والله ما وضَعْناهُ، اخْرُجْ إليهم، فقال رسولُ الله ﷺ: فأينَ؟ فأشار إلى بَني قُرَيظةَ"، فأرادَ النَّبيُّ ﷺ حثَّ النَّاسِ على السَّيرِ والإسْراعِ إليها، فأمرهم بصلاة العصر هناك؛ فقال: "لا يصلينّ أَحدٌ العصر إلا في بني قريظة"؛ وذلك حتى يسرعوا إلى بني قريظة قبل أن يخرج وقت الصلاة.

ووصل إليهم رسول الله ﷺ فحاصرهم، واشتد عليهم الحصار حتى نزلوا على أمره، واختاروا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ -سيد الأوس-؛ راجين أن يخفف فيهم لأنه كان حليفهم قبل الإسلام، فأتاهم سعد رضي الله عنه متثاقلاً بجرحه، فقال: (لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم)، ثم حكم بأنْ يُقْتَلَ رجالهم، وأَنْ تُسْبَى ذراريهم ونساؤهم، وأَنْ تُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ، فكان فيهم

الحكم العدل. إن الخيانة وقت السلم، ليست كالخيانة وقت الحرب؛ ففي الوقت الذي اشتد فيه الحصار على المدينة خان اليهود العهد، فكانوا شوكة في حلق المسلمين، ولولا ستر الله ثم حكمة النبي ﷺ ولجوئه إلى الحيلة لضاعت المدينة بمن فيها من المسلمين؛ ولذلك فإن ذنب اليهود هنا غير مغتفَر، ولا يكفي طردهم وخروجهم بل لا بدّ من قطع دابرهم.

فحفر رجالات بني قريظة قبورهم بأيديهم، وقتلهم رسول الله ﷺ شر قتلة، وقُتِلَ معهم حيي بن أخطب، سيد بني النضير ورأس الأفعى الذي دبر مع قريش الهجوم على المدينة، وسبي نساؤهم، وقسمت أموالهم وديارهم على المسلمين، وبمقتل رجالات بني قريظة تخلصت المدينة المنورة من شر اليهود إلى الأبد، واستطاع المسلمون أن يعيشوا آمنين مطمئنين بعيدًا عن مكائدهم وأحقادهم.

زواجه ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها

لم يكن زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها زواجًا عاديًّا كسائر زيجاته، بل لقد زوجها الله عز وجل من فوق سبع سماوات؛ ليكون في زواجها بالنبي ﷺ تحريماً قطعيًا لعادة التبني في الإسلام.

وزينب بنت جحش رضي الله عنها كانت بنت عمة رسول الله ﷺ، وسيدة شريفة من شريفات قريش، وكان النبي ﷺ قد تبنى مولاه زيد بن حارثة، حتى دعاه الناس: زيد بن محمد، وكان التبني وقتئذ عادة شائعة في العرب، فأراد ﷺ أن يزوج زيدًا من زينب، إلا أن زينب تمنعت؛ لِما بينهما من الفوارق، فكيف لشريفة مثلها أن تتزوج أحد الموالي! إلا أن رسول الله ﷺ ما زال بها حتى نزلت على أمره، وتمت الزيجة، إلا أن زيدًا لم يجد بعد من زوجته إلا كل أنفة وترفع، فضاقت عليه معيشته واشتكى لرسول الله ﷺ مرارًا ومرارًا، فكان رسول الله ﷺ يحضه على إمساكها والصبر عليها، وهو يعلم ﷺ بما أطلعه الله عليه من الغيب- بما سيكون من زواجه منها. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ

وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٧ - ٤٠].

وقد أخطأ بعض المفسرين حين قالوا إن ما أخفاه النبي ﷺ كان حبه لزينب! ففي هذا قدح في مقام رسول الله ﷺ؛ فما كان للنبي ﷺ أن يرغب في امرأة على ذمة رجل آخر أو يرغب في تطليقها، وقلبه الطاهر العفيف لا يلتفت إلى مثل هذه الأمور التي لا تصدر سوى عن شرار الناس، فكيف لها أن تُنسَب إلى خاتم الرسل والأنبياء ﷺ؟! والصحيح -وهو مقالة جمهور المفسرين- أن ما أخفاه رسول الله ﷺ هو فقط ما أعلمه الله به من زواجه بزينب بعد طلاق زيد لها؛ فقد استحيا أن يخبر زيدًا بذلك.

قال ابن الجوزي في زاد المسير: (وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ العُلَماءِ إلى تَنْزيهِ رَسُولِ الله مِن حُبِّها وإيثارِهِ طَلاقَها. وإنْ كانَ ذَلِكَ شائِعًا في التَّفْسِيرِ. قالُوا: وإنَّما عُوتِبَ في هَذِهِ القِصَّةِ عَلى شَيْئَيْنِ،

أَحَدُهُما: أَنَّهُ أُخْبِرَ بأَنَّها سَتَكُونُ زَوْجَةً لَهُ، فَقالَ لِزَيْد: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ"، فَكَتَمَ ما أَخْبَرَهُ الله بِهِ مِن أَمْرِها حَياءً مِن زَيْد أَنْ يَقُولَ لَهُ: إِنَّ زَوْجَتَكَ سَتَكُونُ امْرَأَتِي؛ وهَذا يَخْرُجُ عَلى ما ذَكَرْنا عَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ، وقَدْ نَصَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ، والواحِدِيُّ. والثّاني: أَنَّهُ لَمّا رَأى اتِّصالَ الخُصُومَةِ بَيْنَ زَيْد وزَيْنَبَ، ظَنَّ أَنَّهُما لا يَتَّفِقانِ وأَنَّهُ سَيُفارِقُها، وأَضْمَرَ أَنَّهُ إِنْ طَلَّقَها تَزَوَّجْتُها صِلَةً لِرَحِمِها، وإِشْفاقًا عَلَيْها، لأَنَّها كانَتْ بِنْتَ عَمَّتِهِ أُمَيْمَةَ بِنْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَعاتَبَهُ الله عَلى إِضْمارِ ذَلِكَ وإِخْفائِهِ حِينَ قالَ لِزَيْد: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ"، وأَرادَ مِنهُ أَنْ يَكُونَ ظاهِرُهُ وباطِنُهُ عِنْدَ النّاسِ سَواءً كَما قِيلَ لَهُ في قِصَّةِ رَجُلٍ أَرادَ قَتْلَهُ: هَلّا أَوْمَأْتَ إِلَيْنا بِقَتْلِهِ؟ فَقالَ: "ما يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خائِنَةُ الأَعْيُنِ"، ذَكَرَ هَذا القَوْلَ القاضِي أَبُو يَعْلى رَحْمَةُ الله عَلَيْهِ)[1].

ومن هذه القصة نتعلم:

١- مكانة زيد ﷺ الكبيرة؛ فهو الوحيد من الصحابة الذي ذُكِرَ باسمه صراحةً في كتاب الله.

٢- أن البلاغ الفعلي أقوى من البلاغ القولي، فكان بتلك الزيجة الصادمة للمجتمع وقتئذ إنهاء لعادة جاهلية تغلغلت في قلوب كثير من العرب.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، (٣/ ٤٦٨).

صلح الحديبية

الزمان: ذو القعدة سنة ٦ . هـ

المكان: منطقة الحديبية، وتسمى اليوم منطقة الشميسي بالمملكة العربية السعودية، تبعد عن المسجد الحرام قرابة ٢٤ كم.

في إحدى الليالي من السنة السادسة للهجرة رأى نبي الله ﷺ في منامه أنه قد دخل المسجد الحرام بمكة مع أصحابه محرمين ومؤدين للعمرة، ومن المعروف أن رؤيا الأنبياء حق؛ ولذلك عقد رسول الله ﷺ العزم على الخروج لأداء العمرة بمكة المكرمة. لكن كيف سيكون رد فعل قريش؟؟ وهل ستسمح بحدوث ذلك؟؟

خرج رسول الله ﷺ مع أصحابه لابسين لباس الإحرام، متشوقين إلى بيت الله الحرام، ومعظمين حرمة البيت العتيق، فأحرموا من ذي الحليفة، وساقوا أمامهم الهَدي، في مشهد إيماني مهيب وصل إلى أسماع كافة قبائل العرب، ووصل الخبر إلى قريش فاستشاطت غيظًا، وأقسم أهلها بأغلظ الأيمان ألا يدخلها محمد عليهم عنوة أبدًا، واستعدوا لقتاله والخروج

عليه بالسلاح، وقد حاول ﷺ أن يطمئن قلوبهم، وأرسل إليهم غير مرة من يخبرهم أنه إنما جاء معتمرًا لا مقاتلاً، إلا أن قريشًا أخذتها العزة بالإثم.

واجتهد رسول الله ﷺ في تجنب المصادمة وبيان حسن نيته، فحين بلغه أن خالد بن الوليد قد خرج في طائفة من الرجال لقتاله آثر أن يسلك طريقًا آخر بعيدًا عنهم للبعد عن الاستفزازات وإراقة الدماء، فقال ﷺ: (مَنْ رَجُلٌ يَخْرَجُ بِنَا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمْ الَّتِي هُمْ بِهَا؟)، فقال رجل من أسلم: رَجُلاً مِنْ أَسْلَمَ قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ الله. فَسَلَكَ بِهِمْ طَرِيقًا وَعْرًا بَيْنَ الشِعَابِ، فلما وصلوا إلى الحديبية بركت ناقة رسول الله ﷺ فما تتحرك من مكانها، فقال الصحابة رضي الله عنهم: خلأت القصواء[1]، فقال ﷺ: (مَا خَلأَتْ وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، أي: أن الله أمرها بذلك. لَا تَدْعُونِي قُرَيْشٌ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صِلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا). ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: (انْزِلُوا)، فنزلوا بالحديبية منتظرين وآملين أن يتمكنوا من دخول المسجد الحرام.

وفي تلك الأثناء، أرسلت قريش عددًا من السفراء لإثناء النبي ﷺ ومن معه عن دخول مكة وإجبارهم على الرحيل،

(١) القصواء: اسم ناقة رسول الله ﷺ.

ولما فشلت كافة المحادثات في التوصل إلى حل، أرسل إليهم رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه علّه يقنعهم بدخولهم لأداء العمرة؛ خاصةً أنه فيهم بمنزلة، وقد أحسنت قريش استقبال عثمان، إلا أنها احتبسته لديها ولم تسمح له بالعودة، حتى أُشيع بين الناس أن عثمان قد قُتِلَ، وعندئذٍ لم يجد النبي ﷺ بدًّا من اللجوء للقتال؛ فإن قتل السفراء نذير شؤم، وانطلق الصحابة الكرام رضي الله عنهم لمبايعة رسول الله ﷺ على القتال والثأر لعثمان رضي الله عنه، فكانت بيعة الرضوان. يقول الله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

ولما علمت قريش بأمر بيعة الرضوان، وإصرار النبي ﷺ على القتال أسرعت بإرسال سهيل بن عمرو للتفاوض معه، فلما رآه ﷺ قادمًا انشرح صدره واستبشر وقال: (سَهُلَ أمركم)، وكان ﷺ يحب الفأل الحسن، وقد صدق حدس النبي ﷺ؛ فإن سهيلًا أتى للاتفاق على الصلح ووضع الحرب مدة عشر سنين بين قريش ومن حالفها من جهة والمسلمين ومن حالفهم من الجهة الأخرى، يأمن فيها الناس على أنفسهم وأموالهم، رغم ذلك؛ فإن المعاهدة ستتضمن شروطًا شديدة الإجحاف للمسلمين، وستقابل باعتراض عددٍ من الصحابة.

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ﷺ قالا: "جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الكَاتِبَ - وكان علي بن أبي طالب ﷺ -، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، ولَكِنِ اكْتُبْ "باسْمِكَ اللهمَّ" كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ: واللهِ لا نَكْتُبُهَا إِلَّا "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اكْتُبْ "باسْمِكَ اللهمَّ"، ثُمَّ قَالَ: هَذَا مَا قَاضَى عليه مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: واللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، ولَا قَاتَلْنَاكَ، ولَكِنِ اكْتُبْ "مُحَمَّدُ بْنُ عبدِ اللهِ"، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: واللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ، وإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ "مُحَمَّدُ بْنُ عبدِ اللهِ". فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وبَيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ بِهِ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: واللهِ لا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، ولَكِنْ ذَلِكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وعَلَى أَنَّهُ لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى المُشْرِكِينَ وقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟!"[1].

وهكذا، تضمن الصلح عددًا من الشروط المجحفة؛ فقد أصرت قريش على رد رسول الله ﷺ والصحابة الكرام عن

(١) أخرجه البخاري: (٢٧٣١).

البيت الحرام هذا العام، على أن يعودوا إليه معتمرين في العام القادم؛ حتى لا تتحدث العرب بأن قريشًا قد انصاعت لمحمد ومن معه! ثم كان الشرط الأكثر ظلماً، وهو أنه يتوجب على المسلمين رد كل من جاءهم مسلمًا من قريش بغير إذن وليه، ولا يتوجب على قريش رد من جاءهم مرتدًا من المسلمين! وقد اعترض الصحابة على هذا الشرط أشد الاعتراض، وازدادت حدة التوتر حين جاء أبو جندل ﷺ يستغيث بالمسلمين وهم عاكفون على كتابة الصلح؛ ليخلصوه من براثن المشركين، ووجب التنويه أن أبا جندل هو أحد أبناء سهيل بن عمرو.

جاء في الحديث: (فَبَيْنَما هُمْ كَذلكَ إِذْ دَخَلَ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ في قُيُودِهِ، وقدْ خَرَجَ مِن أسْفَلِ مَكَّةَ حتَّى رَمَى بنَفْسِهِ بيْنَ أظْهُرِ المُسْلِمِينَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: هذا - يا مُحَمَّدُ - أوَّلُ ما أُقَاضِيكَ عليه أنْ تَرُدَّهُ إلَيَّ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: إنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ، قالَ: فَوَاللهِ إذًا لَمْ أُصَالِحْكَ علَى شَيءٍ أبَدًا، قالَ النَّبيُّ ﷺ: فأجِزْهُ لي، قالَ: ما أنَا بمُجِيزِهِ لَكَ، قالَ: بَلَى فَافْعَلْ، قالَ: ما أنَا بفَاعِلٍ، قالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قدْ أجَزْنَاهُ لَكَ، قالَ أبو جَنْدَلٍ: أيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إلى المُشْرِكِينَ وقدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، ألَا تَرَوْنَ ما قدْ لَقِيتُ؟! وكانَ قدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا في اللهِ). ورد رسول الله ﷺ أبا جندل إلى أبيه؛ وفاءً للكلمة وإبرارًا

للعهد، وكان شديد الثقة ﷺ بربه، وأنه لن يخذله.

إلا أن الصحابة الكرام وقع في أنفسهم شيء، ولم يستطع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يسكت إزاء ما رأته عيناه من هذا الظلم البيّن للمسلمين، يقول رضي الله عنه: (فأتَيْتُ نَبيَّ الله ﷺ فَقُلتُ: أَلَسْتَ نَبيَّ الله حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: إنِّي رَسولُ الله، ولَسْتُ أعْصِيه، وهو نَاصري، قُلتُ: أوَلَيسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِه؟ قَالَ: بَلَى، فأخْبَرْتُكَ أنَّا نَأْتِيه العَامَ؟ قالَ: قُلتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيه ومُطَوِّفٌ به، قالَ: فأتَيْتُ أبَا بَكْر فَقُلتُ: يا أبَا بَكْر، أليسَ هذا نَبيَّ الله حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: أيُّها الرَّجُلُ، إنَّه لَرَسولُ الله ﷺ، وليسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وهو نَاصرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بغَرْزِه؛ فَوَالله إنَّه عَلَى الحَقِّ، قُلتُ: أليسَ كانَ يُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتي البَيْتَ ونَطُوفُ بِه؟ قالَ: بَلَى، أفَأخْبَرَكَ أنَّكَ تَأْتِيه العَامَ؟ قُلتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيه ومُطَوِّفٌ به)[1]، وكانت تلك المرة الوحيدة التي عارض فيها عمر رضي الله عنه رسول الله ﷺ، ثم إنه استغفر وعمل لذلك أعمالًا للتكفير عن خطئه.

(١) المصدر نفسه.

وغلبت الحسرة على قلوب الصحابة ﷺ، وسيطر الحزن على وجوههم، فلما أن فرغ القوم من كتابة المعاهدة، أمرهم رسول الله ﷺ أن ينحروا الهَدي وأن يحلقوا رءوسهم حتى يتحللوا من إحرامهم ويعودوا إلى المدينة، فلم يحرك القوم ساكنًا! حتى رددها ثلاث مرات أن (قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا) فلم يتحرك أحد! وكاد الصحابة يقعوا في الفتنة بعصيانهم لرسول الله ﷺ، وشعر رسول الله ﷺ ببوادر الخطر، ولم يدرِ ماذا يفعل، فدخل على أم المؤمنين أم سلمة ﷺ، وكانت هي التي أُقرعت للخروج معه في هذا السفر، فَذَكَرَ لَهَا ما لَقِيَ مِنَ النَّاس، فَقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يا نَبِيَّ الله، أَتُحِبُّ ذلكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحَدًا منهمْ كَلِمَةً، حتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا منهمْ حتَّى فَعَلَ ذلكَ؛ نَحَرَ بُدْنَهُ، ودَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذلكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا، وجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا... فاستطاعت أم سلمة ﷺ بحمكتها أن تدفع عن المسلمين شرًّا عظيماً، وبذلك دُفِنَت الفتنة في مهدها.

وقد سمى الله ﷻ هذا الصلح في كتابه "بالفتح المبين"، وهو الذي نزلت فيه سورة الفتح. قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ

صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ١ - ٤]. فكل محنة تحمل في طياتها المنحة، لكن عقل الإنسان القاصر لا يستطيع اكتناه الغيب، فرغم تلك الشروط المجحفة ورد النبي ﷺ والصحابة عن البيت الحرام، إلا أن هذا الصلح حمل الكثير من الخيرات؛ إذ أمِنَ الناس، واستطاع رسول الله ﷺ أن يدعو قبائل العرب إلى الإسلام من غير تضييق أو عناء، وبل وأرسل الرسل لدعوة كبار الملوك والأمراء، فدخل خلق كثير في الإسلام، وعوّض الله النبي ﷺ وصحابته الكرام جزاء صبرهم على ما يكرهون وغيرتهم على دين الله والمسلمين بفتح خيبر وامتلاك ما فيها، وهو ما سنتحدث عنه في الفصل القادم بإذن الله. ثم أنزل ﷻ الأمر باستثناء المؤمنات من هذا الشرط المجحف الذي وضعته قريش، فنهى عن رد المسلمات إلى المشركين. قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة: ١٠].

ثم إن أبا جندل، وغيره من المسلمين كأبي بصير ومن معه استطاعوا الهرب من المشركين، غير أنهم لم يدخلوا المدينة حتى لا يحرجوا رسول الله ﷺ أو يجرحوا وفاءه بكلمته، فكوَّنوا على طرق التجارة تشكيلًا حربيًا للهجوم على قوافل قريش، وعاثوا في أموال قريش نهبًا وسلبًا، لدرجة أن قريش أرسلت إلى رسول الله ﷺ تستجديه أن يأخذهم لديه في المدينة المنورة ليصد أذاهم عنهم! وبذلك لم يصبِ هؤلاء المسلمين أي شيء من هذه الشروط الظالمة، ونجاهم الله بحُسنِ إيمانهم.

فتح خيبر

الزمان: المحرم سنة ٧. هـ

المكان: خيبر بأرض الشام.

كان زعماء بني النضير الساكنون بخيبر قد سعوا في إثارة قبائل العرب على النبي ﷺ في غزوة الأحزاب -كما أشرنا سالفًا-، فلما أَمن رسول الله ﷺ الجبهة الداخلية بوضع الصلح مع قريش، وجد الفرصة سانحة للاتجاه إلى تأمين الجبهة الخارجية، فعزم على الخروج إلى خيبر لتصفية خطر اليهود المحدق بدولة الإسلام.

وسار الجيش الإسلامي إلى خيبر بروح إيمانية عالية، فلم تفت قوة حصون خيبر في عضدهم، ولم ترهبهم شدة بأس رجالها وكثرة عتادها، بل زادتهم يقينًا في نصر الله تعالى، وفرض النبي ﷺ والصحابة الكرام حصارًا شديدًا حول حصون خيبر، ثم قام رسول الله ﷺ بين جنده يومًا فقال: "لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْه، يُحِبُّ الله ورَسولَهُ، ويُحِبُّهُ الله ورَسولُهُ"، فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ، فَقَالَ:

"أَيْنَ عَلِيٌّ؟"، فقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ ودَعَا لَه، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِه وجَعٌ، فأعْطَاهُ فَقَالَ: أُقَاتِلُهُمْ حتَّى يَكونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: "انْفُذْ علَى رِسْلِكَ حتَّى تَنْزِلَ بسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسْلَامِ، وأَخْبِرْهُمْ بما يَجِبُ عليهم، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بكَ رَجُلًا خَيْرٌ لكَ مِن أنْ يَكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ"(١)... ففتح الله على علّي رضي الله عنه، وغنم المسلمون أموالًا كثيرة من خيبر ومتنوعة، وأبقى رسول الله ﷺ يهود خيبر فيها، على أن يعملوا في زراعة الأرض ولهم نصف الثمار، واشترط أن يكون للمسلمين الحق في أن يخرجوهم منها وقتما أرادوا، وقد فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك زمن خلافته؛ لِما رأى من حقدهم وضررهم على المسلمين، فأجلاهم عنها.

ثم ازداد قلب رسول الله ﷺ سرورًا بعودة مهاجري الحبشة، الذين لحقوا برسول الله ﷺ بخيبر يوم فتحها، وفيهم جعفر أبي طالب رضي الله عنه، ابن عم رسول الله ﷺ وحبيبه، حتى قال رسول الله ﷺ: (لا أدْري بأيِّهما أنا أفرَحُ، بفَتحِ خَيْبرَ، أو بقُدومِ جَعفَرٍ)(٢)... فكان فتح خيبر فتحًا مباركًا، جبر فيه الله عز وجل قلب نبيه ﷺ وقلب الصحابة الكرام عما لاقوه من الصد عن بيت الله

(١) أخرجه البخاري: (٣٠٠٩).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: (٥٠٠٣).

الحـرام والصـبر عـلى شروط الصلـح، وأفـاض فيهـا عليهـم مـن رزقـه وكراماتـه.

وفي نفـس السـنة السـابعة مـن الهجـرة أسـلم كل مـن: خالـد بـن الوليـد، وعمـرو بـن العـاص، وعثـمان بـن طلحـة، فلحقـوا برسـول الله ﷺ بالمدينـة المنـورة.

عمرة القضاء

الزمان: ذو القعدة سنة ٧. هـ

انقضى العام بعد صلح الحديبية، وحان وقت وفاء قريش بوعدها للنبي ﷺ والصحابة الكرام، وذلك بالسماح لهم بأداء العمرة وزيارة بيت الله الحرام آمنين مطمئنين، غير أنهم اشترطوا ألا يبقوا بمكة سوى ثلاثة أيام، وأن يدخلوا بغير سلاح سوى السيوف موضوعةً في القِرَب.

ودخل موكب المؤمنين في مشهدٍ روحاني مهيب، يرفعون أصواتهم بالتلبية، وتحفهم الملائكة، ووقع تأويل رؤيا رسول الله ﷺ التي رآها من قبل، وصدق وعد الله الحق. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧].

وقد تعمد رسول الله ﷺ خلال تلك الأيام الثلاثة له بمكة أن يغيظ كفار قريش بكل وسيلة ممكنة، وإغاظة الكفار

مما يتقرب به الله ﷻ، فكان يرمل[١] ﷺ بين الأشواط خلال الطواف، ويقول: (رحمَ الله امرأً أراهم اليومَ مِن نفسِهِ قوَّةً)[٢]، وكان الصحابة ﷺ يرملون معه. ثم إنه تقدم ﷺ للزواج من ميمونة بنت الحارث ﷺ حين تحلل من إحرامه بالعمرة، وكانت ميمونة ﷺ إحدى شريفات قريش، وهي خالة لعبد الله بن عباس، وخالد بن الوليد، وحاول ﷺ أن يستطيل البقاء بمكة بزواجه منها، فلم ترضَ قريش ببقائه أكثر من ثلاث، "فأتاهُ حُوَيطِبُ بنُ عبْدِ العُزَّى في نفَرٍ مِن قُرَيشٍ في اليومِ الثَّالثِ، فقالوا له: إنَّه قد انقَضَى أجَلُكَ، فاخْرُجْ عنَّا، قالَ: "وما عليْكُمْ لو تَرَكْتُمُوني فأعْرَسْتُ بيْنَ أظْهُرِكُم، فصَنَعْتُ لكم طعامًا فحَضَرْتُموه؟" قالوا: لا حاجةَ لنا في طعامِكَ، فاخْرُجْ عنَّا، فخرَجَ بِمَيْمُونةَ بنتِ الحارثِ ﷺ حتَّى أعرَسَ بها بِسَرِفَ"[٣]. وكانت ميمونة ﷺ آخر زوجات رسول الله ﷺ.

وبالحديث عن زوجات النبي ﷺ؛ وهنّ: (خديجة بنت خويلد، وسودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم سلمة هند بنت أبي أمية، وزينب بنت خزيمة، وجويرية بنت الحارث، وزينب بنت جحش، وأم حبيبة بنت

(١) يرمل: أي يسرع ويجري.
(٢) أخرجه الألباني: (٣٦٣).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: (٦٩٨٤).

أبي سفيان، وصفية بنت حيي بن أخطب، وميمونة بنت الحارث)، فقد حدث الكثير من الطعن من قِبَل المبطلين حول زواج النبي ﷺ بأكثر من امرأة، فتحدث بعض المستشرقين – ومن على شاكلتهم – عن عدد زوجات النبي ﷺ وكأنما قد كشفوا سرًّا حربيًا! وانظروا إلى محمد الشهواني، زير النساء، وما إلى ذلك من الترهات... ونسوا أو تناسوا – مع أن أغلبهم على اليهودية والنصرانية – أن نبي الله داود كان له ثماني زوجات، وأما ابنه الملك سليمان فقد كان له ما يجاوز المائة امرأة! وهذا مثبت في العهد القديم لديهم، فلماذا لا يلوكوا سوى سيرة محمد ﷺ؟؟!...

ولنتغاضى عن هذه النقطة، وننظر إلى زوجات محمد ﷺ، فإننا لن نجد فيهنّ بِكرًا سوى عائشة، وقد كان بإمكانه وهو الرسول المرسل والسيد المطاع أن يتزوج أصغر وأجمل وأغنى الأبكار، إلا أنه لم تكن تلك غاية له، وإنما كان زوجاته من الأرامل والمطلقات، بل وحتى المريضات المحتضرات، كأم المؤمنين زينب بنت خزيمة – رضي الله عنها –، فتتم هذ الزيجات لأجل غايتين رئيسيتين، أولا: جبرًا لخواطر هؤلاء النسوة وإعالتهن وتشريفهنّ بمنزلة أمهات المؤمنين، وثانيًا: جمعًا لقبائل العرب تحت راية الإسلام من خلال المصاهرة، ومنها زواجه بأم

حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وجويرية بنت الحارث... ولا يسع المقام هنا تفنيد كل زيجة على حدة.

وإن أخص خواص الرجل زوجه؛ فهي الأعلم بأسراره ومكنون نفسه وعوراته، وزوجات محمد ﷺ وآرائهنّ حوله خير دليل على عظم شخصيته وجميل صدقه وطيبِ معاشرته، فإن خديجة رضي الله عنها لمّا أتاها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، ويحدوه الفزع، طَمْأنَتْهُ وثَبّتَتْه؛ لِمَا تعرفه من كرم نفسه وطِيب أخلاقه ﷺ، فقالت له بكل ثقة: "كَلَّا، أَبْشِرْ فَوَاللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ" .

وتمدح خلقه السيدة عائشة رضي الله عنها قائلة: "ما ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شيئًا قَطُّ بيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا؛ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ" . وتثني على حُسنِ عشرته وقيامه على شئون بيته، فتقول: "كان رسولُ الله ﷺ يخصف نعلَه، ويخيطُ ثوبَه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدُكم في بيته" .

وأما عن السيدة صفية رضي الله عنها، فيروي أنس بن مالك هذا الحديث الممتلئ بالمشاعر والذوق والحنان، فيقول: "رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ يُحَوِّي لَهَا وراءَهُ بعَبَاءَةٍ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ

رُكْبَتَهُ، وتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا علَى رُكْبَتِهِ حتَّى تَرْكَبَ"[1]. وقد أحبته صفية حبًّا جمًّا، وودت لو أنها تفتديه ﷺ بنفسها، فلم تستطع أن تخفي مشاعرها في مرضه ﷺ الذي قُبِضَ فيه، فقالت: "والله يا نَبيَّ الله، لوَدِدتُ أنَّ الذي بك بي" .

وقد يباغتنا هنا معترضٌ بقوله: (إن زوجات محمد متواطئات معه، وإن لم يكنّ متواطئات فخائفات من نفوذه وسطوته؛ ولذلك لم يظهرن أيًّا من سوءاته وخفايا حقيقته)

قلنا: طيب، دعنا نفند قولك خطوة خطوة:

أولًا: إن زوجات النبي ﷺ إحدى عشرة امرأة، فإن كنّ متواطئات، أيعقل أن يجتمعن جميعًا على هذا التواطؤ؟! ألم تكن لتظهر واحدة من بينهنّ لتعترض وتُظهِر حقيقة خداع محمد للناس؟!! وخصوصًا إن كان محمد ﷺ قاتل أبيها كصفية بنت حيي بن أخطب!! ألم يكن الأحرى بصفية أن تكن الكراهية لمحمد، فتحاول قتله مثلًا، أو على الأقل تفضحه بين الناس؟!

فإن قال المعترض: إنما كانت صفية خائفة من أن يمسها محمد ﷺ بسوء، قلنا: ولماذا إذن لم تعترض بعد وفاة محمد ﷺ وتظهر حقيقته – التي تدعيها – وقد أمنت شره بعد رحيله؟؟ فإن قلت إنها كانت تخشى الصحابة، فنود أن نُعلِمَك أن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤٢١١).

السيدة صفية ﵂ عاشت حتى سنة خمسين من الهجرة، وقد مرّ المسلمون خلال العقد الثلاثيني، وبدايات العقد الأربعيني من القرن الأول من الهجرة بسلسلة من الفتن، كان بإمكانها استغلالها لإظهار حقيقة محمد ﷺ والتشفي لأبيها، إلا أن هذه الحقيقة ليست إلا سراب تتوهمه أنت أيها المدعي، والحق أن صفية ﵂ ما فعلت، وما كانت لتفعل؛ لأنها وجدت في محمد ﷺ رجلاً صادقًا ونبيًا كريماً، طيبَ النفس، عظيمَ الشان، فلم تُكن له سوى المحبة والإخلاص، وكذا الأمر نفسه مع سائر زوجاته ﵃... وتلك هي الحقيقة التي ما زلت تستكبر عنها.

ثانيًا: أما عن ادعاء كونهنّ خائفات، فهو بعيد تمامًا عن الصحة؛ لأن النبي ﷺ ما كان ليخيف امرأة أو يجبرها على شيءٍ قط، واسمع حديث ابنة الجون يوضح لك، يقول مالك بن ربيعة أبو أسيد الساعدي ﵁: " خَرَجْنَا مع النَّبيِّ ﷺ حتَّى انْطَلَقْنَا إلى حَائِطٍ يُقَالُ: له الشَّوْطُ، حتَّى انْتَهَيْنَا إلى حَائِطَيْنِ، فَجَلَسْنَا بيْنَهُمَا، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: اجْلِسُوا هَاهُنَا. ودَخَلَ، وقدْ أُتِيَ بالجَوْنِيَّةِ، فَأُنْزِلَتْ في بَيْتٍ في نَخْلٍ في بَيْتِ أُمَيْمَةَ بنْتِ النُّعْمَانِ بنِ شَرَاحِيلَ، ومعَهَا دَايَتُهَا حَاضِنَةٌ لَهَا، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبيُّ ﷺ قَالَ: هَبِي نَفْسَكِ لي، قَالَتْ: وهلْ تَهَبُ المَلِكَةُ نَفْسَهَا للسُّوقَةِ؟! قَالَ: فأَهْوَى بيَدِهِ يَضَعُ يَدَهُ عَلَيْهَا لتَسْكُنَ، فَقَالَتْ: أَعُوذُ باللهِ مِنْكَ، فَقَالَ: قدْ عُذْتِ بمَعاذٍ. ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: يا أَبَا

أُسَيْدٍ، اكْسُهَا رَازِقِيَّتَيْنِ، وأَلْحِقْهَا بأَهْلِهَا"[١]. إذن ماذا فعل ﷺ حيال رفض هذه المرأة الزواج منه؟ هل انتهرها؟ هل عنفها؟ هل أجبرها على الزواج منه بدعوى أنه نبي مرسل من عند الله؟! إن هذه الأخلاق لا تليق برجلٍ ذي مروءة، فكيف بسيد ولد آدم؟! حاشاه أن تلحقه ﷺ أي من هذه النقائص، بل كرم أخلاقه وسماحة طباعه لم تدفعه فقط إلى احترام رغبتها، ولكن قام بإكرامها وكساها وأعادها إلى أهلها معززة مكرمة... فأين ذلك الذي يدعي أن زوجات النبي ﷺ خائفات؟!

وإني لأكاد أبصره ﷺ وهو واقف يوم حجة الوداع يخطب في جموع المسلمين ويقول: " أَلَا واسْتَوْصُوا بالنساءِ خيرًا، فإنما هُنَّ عَوَانٌ عندَكم"، ويقول: " أيُّها النَّاسُ، إنَّ النساءَ عندكم عَوانٍ، أخذتُموهنَّ بأمانة الله، واستحلَلْتُم فروجَهنَّ بكلمةِ الله، ولكم عليهنَّ حَقٌّ، ومِن حَقِّكم عليهنَّ ألَّا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحدًا، ولا يَعْصينَكم في معروفٍ، فإذا فعَلْنَ ذلك فلهن رِزقُهنَّ وكِسوتُهنَّ بالمعروفِ". إن النبي ﷺ أكرم المرأة، ورفعت شريعته المرأة، فإن أبى المعترض إلا الاستكبار بعد كل هذه الدلائل، فهو وعناده![٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٥٢٥٥).
(٢) انظر: اللبنة المتممة، ص: ٦١ - ٦٣.

سرية مؤتة

الزمان: جمادى الأولى سنة ٨. هـ

المكان: منطقة مؤتة وتقع الآن في محافظة الكرك بالأردن.

سبب خروج السرية: مقتل رسل رسول الله ﷺ على يد عمال الروم في الشام.

لعب نصارى العرب في الشام دورًا محوريًا في تأجيج الصراع بين المسلمين وإمبراطورية الروم؛ فقد كان ولاء وتبعية أمراء الشام إلى هرقل؛ فاتخذوا سلوكًا عدوانيًا تجاه رسول الإسلام ﷺ ودعوته، فقُتِلَ رسل رسول الله ﷺ في بُصرى وفي غسان، وقام نصارى الشام بإيعاز من الإمبراطورية الرومانية بقتل والي مَعَان حين أسلم، بل وقتل كل من تسول له نفسه الدخول في الإسلام، وإزاء هذه التصعيدات بقتل الرسل والبعوث، وطغيان الإمبراطورية وصدها عن سبيل الله، أمر رسول الله أصحابه ﷺ بالتجهز لقتال عمال الروم، فحشد ﷺ نحو ثلاثة آلاف مقاتل - وهو عدد ضخم بالنسبة لتعداد المسلمين في ذلك الوقت -، واختار لقيادة تلك السرية ثلاثة أمراء على

التوالي: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة الأنصاري. عن عبد الله بن عمر ﷺ: (أَمَّرَ رَسولُ الله ﷺ في غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ، فَقَالَ رَسولُ الله ﷺ: إنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وإنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ الله بنُ رَوَاحَةَ)[1].

وخرج رسولِ الله ﷺ مُشيِّعًا لأصحاب مُؤتةَ، حتى بلغ ثَنِيَّةَ الوداع ، فوقفَ ووقفوا حولهُ، فقال: (اغْزوا باسم الله فقاتلوا عدُوَّ الله وعدُوَّكم بالشام، وستجدون فيهم رجالًا في الصوامع معتزلين من الناسِ فلا تَعرَّضوا لهم، وستجدونَ آخرينَ للشيطانِ في رؤسهم مفاحصُ فافْلِقوها بالسيوفِ، ولا تقتلوا امرأةً ولا صغيرًا ضَرَعًا ولا كبيرًا فانيًا، ولا تقْطَعُنَّ شجرَة، ولا تَعْقِرُنَّ نخلًا، ولا تهدِموا بيتًا)[2].

فلما وصل جيش المسلمين وجده بانتظاره مائتي ألف جندي على أهبة الاستعداد، نصفهم من نصارى العرب، ونصفهم الثاني من نصارى الروم... فماذا يفعل ثلاثة آلاف مسلم أمام مائتي ألف من النصارى؟!! تردد زيد ﷺ كثيرًا إزاء تلك المفاجأة التي لم تكن في الحسبان، وقام ﷺ يشاور أصحابه، فقال بعضهم: نرسل إلى رسول الله ﷺ في المدينة

(١) أخرجه البخاري: (٤٢٦١).
(٢) السنن الكبرى للبيهقي، (٩/ ٩١).

نخبره بحشود العدو، فإن شاء أمدنا بالمدد، وإن شاء أمرنا بالقتال. وقال بعضهم ناصحًا لزيد: قد وطئت البلاد وأخفت أهلها، فانصرف؛ فإنه لا شيء يعدل العافية... لكن عبد الله بن رواحة ﷺ حسم الأمر، فقال: (يا قوم، والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون، الشهادة!)، فتحمس القوم وعزموا على القتال حتى النهاية.

والتقى الجيشان بمنطقة مؤتة فكانت ملحمة سجلتها كتب التاريخ؛ إذ استبسل القادة الثلاثة حتى استشهدوا، فأوغل زيد ﷺ حتى تخطفته يد القوم، فأخذ الراية من بعده جعفر ﷺ، فلما قُطِعَت يمينه أمسكها بشماله، فلما قُطِعَت شماله أمسكها بعضديه، فلما سقط عن فرسه انحنى عليها يدفع عنها حتى الرمق الأخير، يقول ابن عمر ﷺ: (كُنْتُ فيهم في تِلكَ الغَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بنَ أبي طَالِب، فَوَجَدْنَاهُ في القَتْلَى، ووَجَدْنَا ما في جَسَدِهِ بضْعًا وتِسْعِينَ؛ مِن طَعْنَةٍ ورَمْيَةٍ). ثم أخذ الراية ابن رواحة ﷺ فأثخن في القوم حتى استشهد... فلما قضى القادة الثلاثة اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد ﷺ، فجعلوه أميرًا عليهم، ورأى خالد أن من الخير النجاة بالمسلمين قبل أن يهلكوا جميعًا؛ فوضع خطة سريعة للانسحاب، فأوهم العدو بوصول أمداد للمسلمين، فاصطنع جلبةً وضوضاء في ظلمة

الليل، وبدل الميمنة بالميسرة، والمقدمة بالمؤخرة؛ حتى يرى الأعداء وجوهًا جديدة أمامهم، ثم شن هجمات سريعة متتالية قرب الفجر، حتى ظن الروم أن المدد قد وصل فتخاذلوا عن الهجوم، واستطاع أن ينسحب بشكل نظامي انسيابي، ويعد انسحابه واحدا من أكثر الانسحابات نجاحًا في تاريخ العسكرية، وما زالت خطة خالد الذكية تُدَرَّس حتى الآن في الكليات الحربية.

وقد ظهرت إحدى معجزات رسول الله ﷺ في هذه السرية؛ إذ نعى ﷺ القادة الثلاثة إلى أهل المدينة قبل وصول الخبر. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ، نَعَى زَيْدًا، وجَعْفَرًا، وابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ، قَبْلَ أنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ، فَقالَ: (أخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ، فَأُصِيبَ، ثُمَّ أخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أخَذَ ابنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، وعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ حتَّى أخَذَ سَيْفٌ مِن سُيُوفِ الله حتَّى فَتَحَ الله عليهم)[1]. فسمى رسول الله ﷺ خالدًا رضي الله عنه بسيف الله، وسمى انسحابه فتحًا؛ لأن هذا الانسحاب كان قمة النصر في إطار ظروف تلك المعركة العصيبة.

(١) أخرجه البخاري: (٤٢٦٢).

فتح مكة

الزمان: رمضان سنة ٨. هـ

المكان: مكة المكرمة.

السبب: نقض قريش لصلح الحديبية.

كان ثمة عداء قديم بين قبيلتي خزاعة وبني بكر، وقد انضمت خزاعة لحلف المسلمين، وانضمت بنو بكر لحلف قريش، ولما كان من شروط صلح الحديبية وضع الحرب بين قريش ومن حالفها ومحمد ﷺ ومن حالفه، فقد عُدَّ مساهمة قريش في قتل بني بكر لخزاعة بمثابة فسخ لبنود هذا الصلح؛ فقد أغار بنو بكر على خزاعة في حين غِرة، فقتلوهم وهم متعلقين بأستار الكعبة، فلما استنجدت خزاعة وقالت: إنا قد دخلنا الحرم الآمن، قال بنو بكر: لا إله اليوم! وأثخنوهم قتلاً وجرحًا!

ووقف عمرو بن سالم الخزاعي على باب رسول الله ﷺ يستنصره، فقام ينشد في المسجد قائلا:

يا رب إني ناشدٌ محمدًا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتمُ ولدًا، وكنا والدًا ثُمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرًا أعتدا وادعُ عباد الله يأتوا مددا

فقال رسول الله ﷺ: (نصرت يا عمرو بن سالم! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب).

لقد ارتكبت قريش خطأً فادحًا حين نقضت المعاهدة، ولم يكن رسول الله ﷺ ليضيع تلك الفرصة، فقد هدت قريش الحروب، وأنهكها إفسادها، في حين أن دولة الإسلام بالمدينة استوت وعز مكانها، فآن الأوان لمكة أن تثوب لرشدها وتدخل في حظيرة الإسلام، ومن ثَمَّ عقد رسول الله ﷺ العزم على الخروج إلى مكة، ولكم طال شوقه إلى هذا اللقاء!

أدركت قريش سوء صنيعها، فسارع رؤساؤها إلى إرسال أبي سفيان إلى المدينة المنورة؛ ليتفاهم مع رسول الله ﷺ على إعادة الصلح، فلما وصل مسجد رسول الله ﷺ وعرض حاجته على النبي ﷺ أعرض عنه ولم يجبه، فاستعان بكبار الصحابة ليتوسطوا إليه عنده؛ كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فرفضوا جميعًا وأعرضوا عنه، ورجع أبو سفيان إلى مكة خائبًا بخُفيّ حُنَين، وهو لا يعلم بما يدور في رأس رسول الله ﷺ من الخروج إليهم.

استعد رسول الله ﷺ للخروج إلى مكة، واتخذ لأجل ذلك عددًا من التدابير، فأمر الجيش بالتجهز ولكنه لم يبين هذه المرة وجهته، وأخفى الأمر عن أقرب الناس إليه، ثم بعث عددًا من نجباء أصحابه على حدود المدينة للتأكد من عدم ترسب أي خبر إلى قريش، غير أن واحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يُدعَى حاطب بن أبي بلتعة كان قد وصل إليه الخبر، فكتب كتابًا إلى أهل مكة يحذرهم، وأرسله مع امرأة مسافرة إلى هناك، فنزل جبريل - عليه السلام - فأخبر رسول الله ﷺ بما كان من خبر حاطب، فأسرع رسول الله ﷺ بإرسال عليّ والزبير والمقداد رضي الله عنهم للحاق بتلك المرأة. يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (بَعَثَني رَسولُ الله ﷺ والزُّبَيرَ بنَ العَوَّام وأَبَا مَرْثَدٍ الغَنَويَّ، وكُلُّنَا فَارسٌ، فقَالَ: انْطَلِقُوا حتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ[1]، فَإنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ الُمْشرِكِينَ، معهَا صَحِيفَةٌ مِن حَاطِبِ بنِ أَبي بَلْتَعَةَ إلى الُمْشرِكِينَ، قَالَ: فأدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ علَى جَمَلٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ لَنَا رَسولُ الله ﷺ، قَالَ: قُلْنَا: أيْنَ الكِتَابُ الذي معكِ؟ قَالَتْ: ما مَعِي كِتَابٌ، فأنَخْنَا بهَا، فَابْتَغَيْنَا في رَحْلِهَا فَما وجَدْنَا شيئًا، قَالَ صَاحِبَايَ: ما نَرَى كِتَابًا، قَالَ: قُلتُ: لقَدْ عَلِمْتُ ما كَذَبَ رَسولُ الله ﷺ، والذي يُحْلَفُ به، لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أوْ لَأُجَرِّدَنَّكِ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَتِ الجِدَّ مِنِّي أهْوَتْ بيَدِهَا إلى حُجْزَتِهَا، وهي مُحْتَجِزَةٌ

(١) موضع بين مكة والمدينة بقرب المدينة.

بكسَاء، فأخْرَجَت الكتَابَ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا بِه إلى رَسول الله ﷺ، فَقَالَ: ما حَمَلَكَ يا حَاطِبُ على ما صَنَعْتَ قَالَ: ما بي إلَّا أنْ أكُونَ مُؤْمِنًا بالله ورَسولِه، وما غَيَّرْتُ ولَا بَدَّلْتُ، أرَدْتُ أنْ تَكُونَ لي عِنْدَ القَوْم يَدٌ يَدْفَعُ الله بِهَا عن أهْلِي ومَالي، وليسَ مِن أصْحَابِكَ هُنَاكَ إلَّا وله مَن يَدْفَعُ الله به عن أهْلِه ومَالِه، قَالَ: صَدَقَ، فلا تَقُولوا له إلَّا خَيْرًا. قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّاب: إنَّه قدْ خَانَ الله ورَسوله والمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فأضْرِبَ عُنُقَهُ، قَالَ: فَقَالَ: يا عُمَرُ، وما يُدْرِيكَ، لَعَلَّ الله قد اطَّلَعَ على أهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ، فقَدْ وجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ قَالَ: فَدَمعتْ عَيْنَا عُمَرَ وقَالَ: الله ورَسولُهُ أعْلَمُ)[1]. وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]. وفي الحديث بيان لمنقبة أصحاب بدر.

وخرج رسول الله ﷺ بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار، في العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، قاصدًا مكة المكرمة، فلما وصل الجحفة لقيه عمه

(١) أخرجه البخاري: ٦٢٥٩.

العباس ﷺ ومعه عياله، فلما كان الليل نزل رسول الله ﷺ مر الظهران - وهو أحد أودية منطقة الحجاز شمال مكة -، فأمر الجيش أن أوقدوا النار، فأوقدوها، فلما رأت قريش من بعيد لائحة النار ارتعبت، فقال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا! فقال أحدهم: هذه والله خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها!

وأحس العباس ﷺ بأنها ستكون نهاية قريش إذا دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة، فانطلق على بغلة رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان يعرض عليه طلب الأمان من النبي ﷺ، فقال له: ويحك يا أبا سفيانَ! هذا رسولُ الله ﷺ في الناس، واصباحَ قريش والله! قال أبو سفيان: فما الحيلةُ فداكَ أبي وأمي؟! قال: قلتُ - أي العباس-: والله لئن ظفَرَ بك ليضربنَّ عُنُقَك، فاركبْ معي هذه البغلةَ حتى آتيَ بك رسولَ الله ﷺ أستأْمِنَه لك. قال: فركب خلْفي، فحرَّكتُ به، كلما مررتُ بنارٍ من نيرانِ المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلةَ رسولِ الله ﷺ قالوا: عمُّ رسولِ الله ﷺ على بغْلَتِه، حتى مررتُ بنارِ عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ، فقال: مَن هذا؟ وقام إليَّ، فلما رأى أبا سفيانَ على عَجُزِ الناقةِ قال: أبو سفيانَ عدوُّ الله! الحمدُ لله الذي أمكن منك بغير عقدٍ ولا عهدٍ، ثم خرج يشتَدُّ نحوَ رسولِ الله ﷺ، وركَضتُ البغلةَ،

فسبقتُه بها تسبقُ الدابةُ البطيئةُ الرجلَ البطيءَ، فاقتحمْتُ عن البغلةِ، فدخلتُ على رسولِ الله ﷺ، ودخل عمرُ، فقال: يا رسولَ الله! هذا أبو سفيانَ، قد أمكن الله منه بغير عقدٍ ولا عهدٍ، فدَعْني فلأضْرِبْ عُنُقَه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله! إني قد أجَرْتُه، ثم جلستُ إلى رسولِ الله ﷺ، فأخذتُ برأسِه فقلتُ: لا والله؛ لا يُناجيه الليلةَ رجلٌ دُوني، فلما أكثر عمرُ في شأنِه، قلتُ: مَهْلًا يا عمرُ! والله لو كان من رجالِ بني عديٍّ بنِ كعبٍ ما قلتَ هذا، ولكنك عرفتَ أنه رجلٌ من رجالِ بني عبدِ منافٍ! فقال: مهلًا يا عباسُ! فوالله لَإسلامُك يومَ أسلمْتَ كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطابِ لو أسلَمَ، وما بي إلا أني قد عرفتُ أنَّ إسلامَك كان أَحَبَّ إلى رسولِ الله ﷺ من إسلامِ الخطابِ لو أسلَمَ، فقال رسولُ الله ﷺ: اذهبْ به إلى رَحْلِكَ يا عباسُ! فإذا أصبح فأْتِني به. فذهبتُ به إلى رَحْلي فبات عندي، فلما أصبح غدَوْتُ به إلى رسولِ الله ﷺ فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال: ويحَك يا أبا سفيانَ! ألم يأْنِ لك أن تعلمَ أن لا إلهَ إلا الله؟! قال: بأبي أنت وأمي؛ ما أكرمَك وأحلمَك وأوصَلك! والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله غيرُه؛ لقد أغنى عني شيئًا بعدُ، قال: ويحَك يا أبا سفيانَ! ألمْ يأْنِ لك أن تعلمَ أني رسولُ الله؟! قال: بأبي أنت وأمي؛ ما أحلمَك وأكرمَك وأوصلَك! هذه – والله

– كان في نفسي منها شيءٌ حتى الآنَ، قال العباسُ: ويحك يا أبا سفيانَ! أسلِمْ واشهدْ أن لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله قبل أن يُضرَبَ عُنُقُكَ، قال: فشهد بشهادة الحقِّ وأسلمَ. قلتُ: يا رسولَ الله! إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ يحبُّ هذا الفخرَ، فاجعَلْ له شيئًا. قال: (نعم، مَن دخل دارَ أبي سفيانَ؛ فهو آمِنٌ، ومن أغلق بابَه؛ فهو آمِنٌ، ومن دخل المسجدَ؛ فهو آمِنٌ). فلما ذهب لِينصرفَ؛ قال رسولُ الله ﷺ: يا عباسُ! احبِسْه بمضيقِ الوادي عند خطْمِ الجبلِ، حتى تمرَّ به جنودُ الله فيراها. قال: فخرجتُ به حتى حبستُهَ حيثُ أمرني رسولُ الله ﷺ أن أحبسَه. قال: ومرَّتْ به القبائلُ على راياتها، كلما مَرَّت قبيلةٌ قال: مَن هؤلاءِ؟ فأقول: (سُلَيمٌ)، فيقول: ما لي ولـ (سُلَيم)؟ قال: ثم تمرُّ القبيلةُ، قال: مَن هؤلاءِ؟ فأقول: (مُزَينةُ)، فيقول: ما لي ولـ (مُزَينةُ)؟ حتى نفذَتِ القبائلُ؛ لا تمرُّ قبيلةٌ إلا قال: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلانٍ، فيقول: ما لي ولبني فلانٍ؟ حتى مرَّ رسولُ الله في كتيبتِه الخضراءِ فيها المهاجرونَ والأنصارُ، لا يُرى منهم إلا الحدَقُ [من الحديد]، قال: سبحان الله! مَن هؤلاءِ يا عباسُ؟! قلتُ: هذا رسولُ الله ﷺ في المهاجرين والأنصارِ، قال: ما لأحدٍ بهؤلاءِ قِبَلٌ ولا طاقةٌ، والله يا أبا الفضل! لقد أصبح مُلْكُ ابنِ أخيك الغداةَ عظيماً! قلتُ: يا أبا سفيانَ! إنها النُّبوَّةُ، قال: فنعم إذا، قلتُ: النَّجاءُ إلى قومك. قال: فخرج

حتى إذا جاءهم؛ صرخ بأعلى صوتِه: يا معشرَ قريشٍ! هذا محمدٌ قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دارَ أبي سفيانَ؛ فهو آمِنٌ، فقامت إليه امرأتُه هندُ بنتُ عُتبةَ - زوجة أبي سفيان -، فأخذتُ بشاربه فقالت: اقتُلوا الدَّسِمَ الأحمس - أي: السمين - قُبِّحَ من طليعةِ قومٍ! قال: ويحكم لا تغُرَّنكم هذه من أنفسِكم؛ فإنه قد جاء ما لاَ قِبَلَ لكم به، من دخل دارَ أبي سفيانَ؛ فهو آمِنٌ، قالوا: ويلك وما تُغني دارُك؟! قال: ومن أغلق بابَه؛ فهو آمِنٌ، ومن دخل المسجدَ؛ فهو آمِنٌ. فتفرَّق الناسُ إلى دُورهم، وإلى المسجدِ[1].

ودخل رسول الله ﷺ مكة دخول المتبتل الخاشع، قد طأطأ رأسه وهو راكب بغلته تواضعًا لله ﷻ، وقد أردف أسامة بن زيد خلفه... تُرى كيف كانت مشاعره وقد عاد إلى مكة اليوم مظفرًا فاتحًا بعد كل ما لقيه فيها من الشدائد؟ إنه لم ينسَ يوم خرج هاربًا من بطش القوم مستخفيًا عن أعينهم، يحث الخطى خوف أن يلحق به أحد، وها هو يعود الآن في وضح النهار بين جحافل جيوشه، والتي تنتظر إشارة منه كي لا تبقِ أثرًا لمكة وأهلها، لكنه لم يكن ليفعل ذلك، وما كان ليقابل الإساءة بالإساءة، بل وقف بين أظهرهم وقال: (معشر

(١) أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: ٣٣٤١.

قريش، ما ترون أني فاعلٌ بكم؟)، قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ وابنُ أخ كريم! قال: (فإني أقولُ لكم ما قال يوسفُ لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، اذهبوا فأنتم الطلقاءُ)[١].

وكان أول شيء فعله رسول الله ﷺ حين نزل بمكة أن طاف بالبيت، وجعل يحطم ما حول الكعبة من الأصنام بقوس يحمله في يده، وهو يرتل قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ودخل إلى الكعبة فكبر في نواحيها وصلى، ثم تساور رجال لأخذ مفاتيح الكعبة؛ ليستأثروا بشرف الرفادة، إلا أن رسول الله ﷺ دفعها لعثمان بن طلحة كما كانت، قائلا: "خُذوها يا بَني طَلحةَ خالِدةً تالِدةً، لا يَنزِعُها منكم إلَّا ظالِمٌ"[٢].

ثم قامَ ﷺ في النَّاس، فَحَمِدَ الله وأَثْنَى عليه، ثُمَّ قالَ: (إنَّ الله حَبَسَ عن مَكَّةَ الفِيلَ، وسَلَّطَ عليها رَسوله والْمُؤْمِنِينَ، وإنَّها لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ كانَ قَبْلِي، وإنَّها أُحِلَّتْ لي ساعَةً من نَهارٍ، وإنَّها لَنْ تَحِلَّ لأَحَدٍ بَعْدِي، فلا يُنَفَّرُ صَيْدُها، ولا يُخْتَلَى شَوْكُها، ولا تَحِلُّ ساقِطَتُها إلَّا لِمُنْشِدٍ)[٣].

(١) أخرجه الألباني في فقه السيرة، برقم: ٣٨٢.
(٢) أخرجه شعيب الأرناؤوط في تخريج سير أعلام النبلاء، (٢٠١٨/ ١٢/ ٣).
(٣) أخرجه مسلم: ١٣٥٥.

وأحس الأنصار أن رسول الله ﷺ قد أخذه الشوق لبلده والرأفة بأهله، فخافوا أن لا يعود معهم إلى المدينة، فقالوا: "أَمَّا الرَّجُلُ فقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بعَشِيرَتِه، وَرَغْبَةٌ في قَرْيَتِه، وَنَزَلَ الوَحْيُ علَى رَسولِ الله ﷺ - أي أعلمه بما كان من قول الأنصار -، فقالَ ﷺ: قُلتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بعَشِيرَتِه، وَرَغْبَةٌ في قَرْيَتِه، أَلَا فَما اسْمِي إذنْ؟ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - أَنَا مُحَمَّدٌ عبدُ الله وَرَسولُهُ، هَاجَرْتُ إلى الله وإلَيْكُمْ، فَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ. قالوا: وَالله، ما قُلْنَا إلَّا ضَنًّا بالله وَرَسولِه، قالَ: فإنَّ الله وَرَسوله يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ"[1].

(١) أخرجه مسلم: ١٧٨٠.

غزوة حُنين والطائف

الزمان: شوال سنة ٨. هـ

المكان: الطائف

السبب: لما وصل الخبر إلى هوازن وثقيف بفتح مكة، تذكر القوم سوء فعلهم برسول الله ﷺ يوم الطائف، إذ طردوه، وأغروا به سفهاءهم فضربوه ﷺ بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، حينئذ علمت هوازن ثقيف أنهما مؤاخذتان بما كان منهما، فعقدا العزم على التجهز لقتال رسول الله ﷺ ومن معه.

وبلغ رسول الله ﷺ ما كان من أمر هوازن وثقيف، فخرج بجيشٍ قوامه اثنا عشر ألفًا؛ عشرة آلاف من الصحابة، وألفان من مسلمي الفتح - الحديثي العهد بالإسلام -، واستأجر ﷺ من أهل مكة الدروع والعتاد من أجل تجهيز الجند على أكمل وجه، ثم انطلق الجيش الجرار إلى الطائف، حتى إذا مروا بذات أنواط، وهي شجرة كان يتبرك بها المشركون في الجاهلية ويعلقون عليها أسلحتهم، فقال بعض المسلمين الجدد لرسول الله ﷺ - وأولئك لم يكونوا أسلموا إلا قبل أيام -: يا رسولَ

الله اجعَل لنا ذاتَ أنواطٍ كما لَهم ذاتُ أنواط، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: (سبحانَ الله هذا كما قالَ قومُ موسى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، والَّذي نفسي بيدِهِ لتركَبُنَّ سنَّةَ مَن كانَ قبلَكم)[1]. ثم إن طائفة من المسلمين أعجبتهم كثرة جيشهم فقالوا متفاخرين: (لن نغلب اليوم عن قلة)... فهل فعلا سيغنيهم عددهم؟! هذا ما سنعرفه.

على صعيدٍ آخر، استعدت هوازن وثقيف فخرجت بالنساء والذراري والأموال، ووضعوا هوادجهم في آخر الجيش ليوهموا المسلمين بكثرة عددهم، ثم إنهم اختبأوا في زوايا وادي حُنين ليفاجئوا المسلمين، وكسروا أجفان السيوف لتأكيد عزمهم على قتال رسول الله ﷺ ومن معه حتى الرمق الأخير.

ووقع المسلمون عند وصولهم في كمين هوازن وثقيف، فأحاط القوم بهم من جميع الجهات، وشدوا عليهم شدة رجل واحد، فاضطربت خيول المسلمين، وارتفع الغبار، فما كاد أحد يبصر كفه، وفر من فر، ومن نجا من نجا بنفسه، فما أغنت عنهم كثرتهم شيئا!! وثبت رسول الله ﷺ ومعه عدد من الصحابة، على رأسهم العباس آخذٌ بخطام بغلته؛ لئلا تركض باتجاه الكفار. يصف لنا العباس رضي الله عنه المشهد فيقول:

(١) أخرجه الترمذي: (٢١٨٠).

(شَهِدْتُ مع رَسولِ الله ﷺ يَومَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بنُ الحَارِثِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ رَسولَ الله ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسولُ الله ﷺ عَلى بَغْلَةٍ لَه بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَه فَرْوَةُ بنُ نُفَاثَةَ الجُذَامِيُّ، فَلَمَّا التَقَى المُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى المُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسولُ الله ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الكُفَّارِ، قالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسولِ الله ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسولِ الله ﷺ، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، فَقالَ عَبَّاسٌ - وَكانَ رَجُلاً صَيِّتًا[1] -: فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قالَ: فَوَالله لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ البَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقالوا: يا لَبَّيْكَ، يا لَبَّيْكَ، قالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ، وَالدَّعْوَةُ فِي الأَنْصَارِ يقولونَ: يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، قالَ: ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ، فَقالوا: يا بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ، يا بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسولُ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: هَذا حِينَ حَمِيَ الوَطِيسُ . قالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسولُ الله ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الكُفَّارِ، ثُمَّ قالَ: انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ. قالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا القِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، قالَ: فَوَالله مَا هُوَ إِلَّا أَنْ

(١) أي: عالي الصوت.

رَمَاهُمْ بحَصَيَاتِهِ، فَما زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلاً، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا - أي أنهم انهزموا وولوا مدبرين فكانت العاقبة للمسلمين -)[1]... وأنزل الله تعالى قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٦].

وكان في حنين الدرس الكبير للمسلمين؛ فإنه لما قال المسلمون: (لن نُغلَبَ اليوم عن قِلة) جاء التأديب السريع من السماء، فانقلبت موازين القوة، ومادت الأرض تحت الأقدام، وولى المسلمون الأدبار... وهل يغني عن المرء شيء إذا ركن قلبه إلى الأسباب واستغنى عن مسببها الملك الواحد الديّان؟! فلما كانت التوبة وصدق اللجوء لله عادت الأمور إلى نصابها من جديد وكان النصر من الله القوي المتين.

حصار الطائف

ثم إن النبي ﷺ طارد فلول الأعداء، حتى حاصرهم في حصونهم بالطائف، وكانت حصونهم قوية منيعة، فكانوا يقتلون بين فينة وأخرى عددًا من الصحابة بالنبل والرماح

(١) أخرجه مسلم: (١٧٧٥).

وإلقاء الصخور، فحاول رسول الله ﷺ أن يشن عليهم حربًا نفسية؛ فأمر بتحريق جزء من نخيلهم، حتى ناشده القوم بالله والرحم أن يتوقف عن ذلك، فتوقف ﷺ، ثم نادى في مواليهم أن كل من خرج منهم للمسلمين فهو حر، فهرب من قبضتهم بضعة وعشرون عبدًا، أعتقهم رسول الله ﷺ جميعًا، فلما لم يجدِ الحصار نفعًا، وجد رسول الله ﷺ أن من الحكمة فك الحصار؛ إذ كل ما حول مكة تقريبا أصبح تحت سلطان المسلمين، فلا داعي لتضييع الوقت، فلما هم الصحابة رضي الله عنهم أن يرتحلوا قالوا: يا رسول الله، ادعُ على ثقيف، فقال: (اللهم اهدِ ثقيف وائتِ بهم)[1].

تقسيم غنائم حنين

لما قسَّم رسول الله ﷺ غنائم حنين، آثر يومئذ عددًا من المسلمين الجدد في القِسمة، فأعطاهم أكثر مما أعطى غيرهم؛ وذلك تأليفًا لقلوبهم وصرفًا لغوائل الجاهلية من صدورهم، فلمز بعض المنافقين تلك القسمة. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (لَمَّا كانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ رَسولُ الله ﷺ نَاسًا في القِسْمَةِ، فأعْطَى الأقْرَعَ بنَ حَابِسٍ مِئَةً مِنَ الإبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذلكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِن أَشْرَافِ العَرَبِ، وَآثَرَهُمْ يَومَئِذٍ في

(١) أخرجه الألباني في ضعيف الترمذي، برقم: (٣٩٤٢).

القِسْمَة، فَقَالَ رَجُلٌ: وَالله، إنَّ هذه لَقِسْمَةٌ ما عُدِلَ فيهَا وَما أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ الله، قَالَ: فَقُلتُ: وَالله، لأُخْبِرَنَّ رَسولَ الله ﷺ، قَالَ: فأَتَيْتُهُ فأَخْبَرْتُهُ بما قَالَ، قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حتَّى كانَ كَالصِّرفِ[1]، ثُمَّ قَالَ: فمَن يَعْدِلُ إنْ لَمْ يَعْدِلِ الله وَرَسولُهُ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: يَرْحَمُ الله مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بأَكْثَرَ مِن هذا فَصَبرَ. قَالَ قُلتُ: لا جَرَمَ لا أَرْفَعُ إلَيْهِ بَعْدَهَا حَدِيثًا).[2]

ووجد قومٌ من الأنصار في أنفسهم شيئا من تلك القسمة؛ إذ كانوا أقل الناس حظًّا فيها، لكنهم ما جرأوا على الجهر بذلك، حتى أتى سعد بن عبادة رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّ هذا الحَيَّ من الأنصارِ وَجدوا علَيكَ في أنفسِهم؟ قالَ: فيمَ؟ قالَ: فيما كانَ من قَسمِكَ هذه الغنائم في قَومِكَ وفي سائر العرب، ولَم يكُن فيهم من ذلكَ شيءٌ. قالَ رسولُ الله ﷺ: فأينَ أنتَ من ذلكَ يا سعدُ؟ قالَ: ما أنا إلَّا امرؤٌ من قَومي. فقالَ رسولُ الله ﷺ: اجمَعْ لي قَومَكَ في هذهِ الحظيرةِ فإذا اجتمَعوا فأعلمني، فخرجَ سعدُ فصرخَ فيهم فجمعَهم في تلكَ الحظيرةِ... حتَّى إذا لَم يبقْ من الأنصارِ أحدٌ إلَّا اجتمعَ لهُ أتاهُ، فقالَ: يا رسولَ الله اجتمعَ لكَ هذا الحَيُّ من الأنصارِ حَيثُ

(١) الصرف: صبغ أحمر.

(٢) أي أشفق عبد الله بن مسعود ﷺ على رسول الله ﷺ، وخاف أن يصيبه مكروه من شدة انفعاله، فقرر أن لا يرفع إليه أي شيء يغضبه أبدًا بعد ذلك.

أمرتَني أن أجمعَهُم. فخرجَ رسولُ الله ﷺ، فقامَ فيهم خطيبًا فحمدَ الله وأثنَى علَيه بما هوَ أهلُهُ، ثمَّ قالَ: يا معشرَ الأنصارِ ألَم آتِكُم ضُلَّالًا فهداكُم الله، وعالةً فأغناكُم الله، وأعداءً فألَّفَ الله بَين قلوبِكُم ؟؟ قالوا: بلَى! قالَ رسولُ الله: ألا تجيبونَ يا معشرَ الأنصارِ؟ قالوا: وما نقولُ يا رسولَ الله وبماذا نُجيبُكَ؟ المَنُّ لله ورسولِه. قالَ: والله لَو شِئتُم لقُلتُم فصدَقتُم وصُدِّقتُم: جئتَنا طريدًا فآوَيناكَ، وعائلًا فآسَيناكَ، وخائفًا فأمَّنَّاكَ، ومَخذولًا فنصَرناكَ... فقالوا: المَّنُ لله ورسوله. فقال: أوَجَدتُم في نُفوسِكُم يا مَعشرَ الأنصارِ في لُعاعَةٍ مِن الدُّنيا تألَّفتُ بها قومًا أسلَموا، ووَكَلتُكُم إلى ما قسمَ الله لكُم مِن الإسلام!! أفَلا ترضَونَ يا مَعشرَ الأنصارِ أن يذهبَ النَّاسُ إلى رحالِهِم بالشَّاءِ والبَعيرِ وتذهَبونَ برسولِ الله إلى رحالِكُم؟ فَوَالَّذي نَفسي بيدِه، لَو أنَّ النَّاسَ سَلَكوا شِعبًا وسَلَكتِ الأنصارُ شِعبًا، لسَلَكتُ شِعبَ الأنصارِ، ولَولا الهجرةُ لكُنتُ امْرَأً مِن الأنصارِ. اللهمَّ ارحَمْ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ. فبكَى القَومُ حتَّى أخضَلوا لِحاهُم. وقالوا: رَضينا بالله رَبًّا، ورسولِه قسمًا، ثمَّ انصرفَ.. وتفرَقوا...[1].

(١) أخرجه البخاري: ٤٣٣٠ (بلفظٍ آخر).

قدوم كعب بن زهير وقصيدة البردة

كان كعب بن زهير أحد الشعراء المخضرمين الذين ذاع صيتهم في الجاهلية، فلما جاء الإسلام هجا رسول الله ﷺ وشبب بنساء المسلمين، فأهدر رسول الله ﷺ دمه، فلما كان فتح مكة علم كعب أن لا مناص له من رسول الله ﷺ ورجاله، فقرر أن يأتيه مسلمًا، وقد علم أنه لا يقتل أحدًا أتاه تائبًا.

فخرَجَ كعب حتَّى قدِمَ المَدينةَ، ثم غدا على رَسولِ الله ﷺ حينَ صَلَّى الصُّبحَ، فصَلَّى معَ النَّاسِ، ثمَّ قامَ إلى رَسولِ الله ﷺ حتَّى وضَعَ يَدَه في يَدِه، وكانَ رَسولُ الله ﷺ لا يَعرِفُه، فقالَ: يا رَسولَ الله، إنَّ كَعبَ بنَ زُهَيرٍ جاءَ ليَسْتأمِنَ منكَ تائبًا مُسلِمًا، هل قابِلٌ منه إنْ أنا جئتُكَ به؟ فقالَ رَسولُ الله ﷺ: نعمْ، فقالَ: يا رَسولَ الله، أنا كَعبُ بنُ زُهَيرٍ، فوثَبَ عليه رَجُلٌ مِنَ الأنْصارِ وقالَ: يا رَسولَ الله، دَعْني وعَدوَّ الله أضرِبُ عُنُقَه، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: (دَعْه عنكَ؛ فإنَّه قد جاءَ تائبًا نازِعًا)[1]، ثم أنشد كعبٌ قصيدته المشهورة التي مطلعها:

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: (٦٦٤١).

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ مُتَيَّمٌ إثرَها لَم يُجزَ مَكبولُ
وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إذ رَحَلوا إلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكحولُ

فبدأ القصيدة بالغزل كعادة شعراء ذلك الزمان... ثم بيّن ما شعر به من الخوف حين أهدر رسول الله ﷺ دمه، فقال:

يَسعى الوُشاةُ بِجَنبَيها وَقَولُهُم إنَّكَ يَا بنَ أَبي سُلمى لَمَقتولُ
وَقالَ كُلُّ خَليلٍ كُنتُ آمُلُهُ لا أُلفِيَنَّكَ إنّي عَنكَ مَشغولُ
فَقُلتُ خَلّوا طَريقي لا أَبا لَكُمُ فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَحمَنُ مَفعولُ
كُلُ ابنِ أُنثى وَإن طالَت سَلامَتُهُ يَوماً عَلى آلَةٍ حَدباءَ مَحمولُ
أُنبئتُ أَنَّ رَسولَ الله أَوعَدَني وَالعَفوُ عِندَ رَسولِ الله مَأمولُ
مَهلاً هَداكَ الَّذي أَعطاكَ نافِلَةَ ال قُرآنِ فيها مَواعيظٌ وَتَفصيلُ
لا تَأخُذَنّي بِأَقوالِ الوُشاةِ وَلَم أُذنِب وَلَو كَثُرَت عَنّي الأَقاويلُ
لَقَد أَقومُ مَقاماً لَو يَقومُ بِهِ أَرى وَأَسمَعُ ما لَو يَسمَعُ الفيلُ
لَظَلَّ يُرعَدُ إلّا أَن يَكونَ لَهُ مِنَ الرَسولِ بِإذنِ الله تَنويلُ

ثم مضى يمدح رسول الله ﷺ والصحابة الكرام، فقال:

إنَّ الرَسولَ لَسَيفٌ يُستَضاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِن سُيوفِ الله مَسلولُ
في عُصبَةٍ مِن قُرَيشٍ قالَ قائِلُهُم بِبَطنِ مَكَّةَ لَمّا أَسلَموا زولوا
زَالوا فَما زالَ أَنكاسٌ وَلا كُشُفٌ عِندَ اللِقاءِ وَلا ميلٌ مَعازيلُ
شُمُّ العَرانينِ أَبطالٌ لَبوسُهُمُ مِن نَسجِ داوُدَ في الهَيجا سَرابيلُ

فلما أن أتم كعب رضي الله عنه قصيدته خلع رسول الله ﷺ بردته،

فألبسه إياها؛ رِضًا بما قال، وسميت قصيدته "بالبردة"، وهي القصيدة التي عارضها الكثير من شعراء العربية على مر الزمان.

غزوة تبوك

وتسمى (غزوة العُسرة)

وتسمى (الغزوة الفاضحة)

الزمان: رجب سنة ٩. هـ

المكان: عين تبوك شمال بلاد الحجاز، قرب حدود الأردن حاليًا.

السبب: خرج رسول الله ﷺ لملاقاة الروم في تبوك؛ استجابةً لفريضة الجهاد؛ وثأرًا لأصحاب مؤتة الشهداء. وهذه الغزوة تعتبر ضمن أنواع القتال الوقائي، الذي يعتمد على نظام الضربات الاستباقية؛ لتأمين حدود الدولة الإسلامية من غوائل المتربصين، وهو يتضمن أيضًا جانبًا دعويًا، بإفساح المجال لنشر دعوة الإسلام، خصوصًا وأن إمبراطورية الروم قد منعت جماهيرها من الإسلام، وقتلت كل من تسول له نفسه الإيمان بدعوته - كما أشرنا سابقًا في أحداث مؤتة -.

وقد جاءت غزوة تبوك في ظروف شديدة الصعوبة، فقد اجتمع فيها: أولا: الحر؛ فكانت في أشهر الصيف. وثانيا: بعد

المسافة، والتي تتجاوز الثلاثمائة كيلومتر. وثالثًا: حلول موسم الحصاد وجمع الثمار، فأغرى ذلك عدد كبير من المنافقين بالقعود... فكانت تلك الغزوة فاضحة لهم... قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة: ٨١ - ٨٢]... وكانوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ بمختلف الأعذار المقبولة والغير مقبولة، والمعقولة واللا معقولة، لدرجة أن أحدهم قد اعتذر إلى رسول الله ﷺ بأنه لا يستطيع الصبر عن نساء الروم، وشعرهن الأصفر، وعيونهن الزرق، وجمالهنّ الفتاك!! فلو ذهب معه في الغزو فلعله لا يستطيع السيطرة على نفسه فيقع في الفتنة!!! فأنزل الله ﷻ فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٩]... وحقيقة الأمر خلاف ما ذكره ذلك الكذاب وأمثاله من المنافقين، لكن ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [التوبة: ٤٢].

وعلى الجانب الآخر، فقد سارع المؤمنون إلى الاستجابة لأمر الله ورسوله ﷺ حين دعاهم إلى التصدق من أجل تجهيز الجيش؛ فجاءَ عُثمانُ بنُ عَفَّانَ إلى النَّبيِّ ﷺ بألْف دينار في ثَوبه، فصَبَّها في حِجْر النَّبيِّ ﷺ، فجَعَلَ النَّبيُّ ﷺ، يُقَلِّبُها بيَدِه، وَيَقولُ: (ما ضَرَّ ابنَ عَفَّانَ ما عَمِلَ بَعدَ اليَوم - يُرَدِّدُها مِرارًا)(١).

وأراد عمر أن يسبق أبا بكر، فقرر أن يتصدق بنصف ماله، يقول رضي الله عنه: أمَرَنا رَسولُ الله ﷺ يومًا أنْ نَتصدَّقَ، فوافَقَ ذلك مالًا عندي، فقلتُ: اليومَ أسْبِقُ أبا بَكرٍ إنْ سَبَقْتُهُ يومًا، قال: فجئتُ بنِصفِ مالي، فقال رسولُ الله ﷺ: ما أبقَيتَ لأهلِكَ؟ قلْتُ: مِثلَهُ، قال: وأتى أبو بَكرٍ بكُلِّ ما عنده، فقال له رَسولُ الله ﷺ: ما أبقَيْتَ لأهلِكَ؟ فقال: أبقَيتُ لهمُ الله ورسولَهُ، قلتُ: لا أُسابِقُك إلى شَيءٍ أبدًا(٢).

وانفطر قلب فقراء المسلمين وضعفائهم حين لم يجدوا ما يتجهزون به للغزو، فانسكبت دموعهم حزنًا على فوات فريضة الجهاد، رغم أن الله تعالى قد أعذرهم. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، وأحمد (٢٠٦٣٠) واللفظ له.
(٢) أخرجه الألباني في صحيح أبي داود: (١٦٧٨).

رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ۞ [التوبة: ٩١ - ٩٣]... فشتان ما بين قلوبٍ وقلوب! قلوب تحزن على فوات الطاعة... وقلوب تفرح لضياعها... نعوذ بالله من النفاق.

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثين ألف مقاتل، قاصدين تبوك، وقد صرّح ﷺ بوجهته هذه المرة حتى يستعد القوم لطول السفر، وعند مرورهم بمساكن أصحاب الحِجر، الذين قتلوا ناقة نبي الله صالح - عليه السلام -، فأعمهم الله بالعذاب، أسرع رسول الله ﷺ حتى زجر ناقته، وقال: (لا تَدْخُلُوا مَساكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا باكِينَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَهُمْ)[1]. ثم لما وصل رسول الله ﷺ إلى وجهته بتبوك لم يجد أحدًا! بل وأقام فيها عشرين يومًا فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منه! فنصره الله ﷻ بالرعب من قبل وصوله، وآثر أمراء هذه المنطقة الصلح ودفع الجزية، فكان النصر المبين، ورجع ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم دون إسالة قطرة دم واحدة.

(١) متفق عليه.

ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، فطفق المنافقون يحلفون له ويُدلُون إليه بأعذارهم ورسول الله ﷺ يقبل منهم ويكِل نواياهم إلى الله ﷻ، إلا ثلاثة من القوم لم يعتذروا، وإنما اعترفوا بذنبهم، وأقروا أنهم ما تركوا الغزو لعذر ولكن مُتَعمِّدين مؤاثرين القعود والكسل، وكانوا قبل ذلك من أهل الخير ولم يُعهَد منهم إلا الخير، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة رضي الله عنهم، فأمرهم رسول الله ﷺ أن ينتظروا حتى يحكم الله ﷻ فيهم. قَالَ كَعْبٌ رضي الله عنه: لَمْ أَتَخَلَّفْ عن رَسولِ الله ﷺ في غَزْوَةٍ غَزَاهَا إلَّا في غَزْوَةِ تَبُوكَ، غيرَ أنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، ولَمْ يُعَاتِبْ أحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إنَّما خَرَجَ رَسولُ الله ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، حتَّى جَمَعَ الله بيْنَهُمْ وبيْنَ عَدُوِّهِمْ علَى غيرِ مِيعَادٍ، ولقَدْ شَهِدْتُ مع رَسولِ الله ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا علَى الإسْلَامِ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإنْ كَانَتْ بَدْرٌ أذْكَرَ في النَّاسِ منها، كانَ مِن خَبَرِي: أنِّي لَمْ أكُنْ قَطُّ أقْوَى ولَا أيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عنْه في تِلكَ الغَزَاةِ، والله ما اجْتَمعتْ عِندِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حتَّى جَمَعْتُهُما في تِلكَ الغَزْوَةِ، ولَمْ يَكُنْ رَسولُ الله ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إلَّا وَرَّى بغَيْرِهَا، حتَّى كَانَتْ تِلكَ الغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسولُ الله ﷺ في حَرٍّ شَدِيدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا ومَفَازًا وعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أمْرَهُمْ؛

لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فأَخْبَرَهُمْ بوَجْهِهِ الذي يُرِيدُ، والمُسْلِمُونَ مع رَسولِ الله ﷺ كَثِيرٌ، ولَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدِّيوَانَ - قَالَ كَعْبٌ: "فَما رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يَتَغَيَّبَ إلَّا ظَنَّ أنْ سَيَخْفَى له، ما لَمْ يَنْزِلْ فيه وَحْيُ الله، وغَزَا رَسولُ الله ﷺ تلكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ والظِّلَالُ، وتَجَهَّزَ رَسولُ الله ﷺ والمُسْلِمُونَ معهُ، فَطَفِقْتُ أغْدُو لِكَيْ أتَجَهَّزَ معهُمْ، فأرْجِعُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، فأقُولُ في نَفْسِي: أنَا قَادِرٌ عليه، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بي حتَّى اشْتَدَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصْبَحَ رَسولُ الله ﷺ والمُسْلِمُونَ معهُ، ولَمْ أقْضِ مِن جَهَازِي شيئًا، فَقُلتُ: أتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بيَوم أوْ يَومَيْنِ، ثُمَّ ألْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أنْ فَصَلُوا لأتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، فَلَمْ يَزَلْ بي حتَّى أسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ، وهَمَمْتُ أنْ أرْتَحِلَ فأُدْرِكَهُمْ، ولَيْتَنِي فَعَلْتُ! فَلَمْ يُقَدَّرْ لي ذلكَ، فَكُنْتُ إذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسولِ الله ﷺ فَطُفْتُ فيهم، أحْزَنَنِي أنِّي لا أرَى إلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عليه النِّفَاقُ، أوْ رَجُلًا ممَّنْ عَذَرَ الله مِنَ الضُّعَفَاءِ، ولَمْ يَذْكُرْنِي رَسولُ الله ﷺ حتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وهو جَالِسٌ في القَوْمِ بتَبُوكَ: ما فَعَلَ كَعْبٌ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ: يا رَسولَ الله، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ ونَظَرُهُ في عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ: بئْسَ ما قُلْتَ، والله يا رَسولَ الله ما عَلِمْنَا عليه إلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسولُ الله ﷺ، قَالَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أنَّه

تَوَجَّهَ قَافِلاً، حَضَرَنِي هَمِّي، وطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ، وأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِن سَخَطِهِ غَدًا؟! واسْتَعَنْتُ علَى ذلكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِن أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إنَّ رَسولَ الله ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ، وعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ منه أَبَدًا بِشَيءٍ فيه كَذِبٌ، فأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وأَصْبَحَ رَسولُ الله ﷺ قَادِمًا، وكانَ إذَا قَدِمَ مِن سَفَرٍ، بَدَأَ بالمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ للنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إلَيْهِ ويَحْلِفُونَ له، وكَانُوا بِضْعَةً وثَمَانِينَ رَجُلاً، فَقَبِلَ منهمْ رَسولُ الله ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ، وبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهمْ، ووَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلى الله، فَجِئْتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ، فَجِئْتُ أَمْشِي حتَّى جَلَسْتُ بيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: ما خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، إنِّي والله لَو جَلَسْتُ عِنْدَ غَيرِكَ مِن أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِن سَخَطِهِ بعُذْرٍ، ولَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا ، ولَكِنِّي والله، لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ الله أنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، ولَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إنِّي لَأَرْجُو فيه عَفْوَ الله، لا والله، ما كانَ لِي مِن عُذْرٍ، والله ما كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى، ولَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسولُ الله ﷺ: أَمَّا هذا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حتَّى يَقْضِيَ الله فِيكَ. فَقُمْتُ، وثَارَ رِجَالٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقالوا لِي: والله ما عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا

قَبْلَ هـذا، ولقَـدْ عَجَـزْتَ أنْ لا تكُـونَ اعْتَـذَرْتَ إلى رَسـولِ الله ﷺ بـما اعْتَـذَرَ إلَيْـهِ المُتَخَلِّفُـونَ، قـدْ كانَ كافِيَـكَ ذَنْبَـكَ اسْتِغْفَارُ رَسـولِ الله ﷺ لَـك، فَـوَالله مـا زَالُـوا يُؤَنِّبُـوني حتَّـى أرَدْتُ أنْ أرْجِـعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُـمَّ قُلْـتُ لهـمْ: هـلْ لَقِـيَ هـذا مَعِـي أحَـدٌ؟ قالـوا: نَعَـمْ، رَجُـلَانِ قَـالَا مِثْلَ مـا قُلْـتَ، فقِيـلَ لهـما مِثْلُ مـا قيـلَ لَـك، فَقُلْـتُ: مَـن هُمَـا؟ قالـوا: مُـرَارَةُ بـنُ الرَّبيـعِ العَمْـرِيُّ، وهِـلَالُ بـنُ أُمَيَّـةَ الوَاقِفِـيُّ، فَذَكَـرُوا لي رَجُلَـيْنِ صَالِحَـيْنِ قـدْ شَـهِدَا بَـدْرًا، فِيهِما أُسْـوَةٌ، فَمَضَيْـتُ حِـينَ ذَكَرُوهُمـا لي، ونَهَـى رَسـولُ الله ﷺ المُسْـلِمِينَ عـن كَلَامِنَـا أيُّهـا الثَّلَاثَـةُ مـن بَـيْنِ مَـن تَخَلَّـفَ عنْـه، فَاجْتَنَبَنَـا النَّـاسُ، وتَغَيَّرُوا لَنَـا حتَّـى تَنَكَّـرَتْ في نَفْسِي الأرْضُ، فَـما هـي الَّتـي أعْرِفُ، فَلَبِثْنَـا عـلَى ذلـك خَمْسِـينَ لَيْلَـةً، فأمَّـا صَاحِبَـايَ فَاسْـتَكَانَا وقَعَـدَا في بُيُوتِـهما يَبْكِيَـان، وأمَّـا أنَـا، فَكُنْـتُ أشَـبَّ القَـوْمِ وأجْلَدَهُـمْ، فَكُنْـتُ أخْـرُجُ فأشْـهَدُ الصَّـلَاةَ مـع المُسْـلِمِينَ، وأطُـوفُ في الأسْـوَاقِ ولَا يُكَلِّمُنِـي أحَـدٌ، وآتي رَسـولَ الله ﷺ فَأُسَـلِّمُ عليـه وهـو في مَجْلِسِـه بَعْـدَ الصَّـلَاة، فأقُـولُ في نَفْسِي: هـلْ حَـرَّكَ شَـفَتَيْه بِـرَدِّ السَّـلَام عَـلَيَّ أمْ لَا؟ ثُـمَّ أُصَـلِّي قَرِيبًـا منـه، فَأُسَـارِقُهُ النَّظَـرَ، فَـإِذَا أقْبَلْـتُ عـلَى صَـلَاتي أقْبَـلَ إلَيَّ، وإذَا التَفَـتُّ نَحْـوَهُ أعْـرَضَ عَنِّـي، حتَّـى إذَا طَـالَ عَـلَيَّ ذلـكَ مِـن جَفْـوَةِ النَّـاس، مَشَـيتُ حتَّـى تَسَـوَّرْتُ جِـدَارَ حَائِـطِ أبِي قَتَـادَةَ، وهـو ابـنُ عَمِّـي وأحَـبُّ النَّـاسِ إلَيَّ، فَسَـلَّمْتُ عليـه،

فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللهِ، هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ المَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ مِن أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَن يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِن مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، ولَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ ولَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وهَذا أَيْضًا مِنَ البَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا ولَا تَقْرَبْهَا، وأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذا الأَمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا، ولَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ. قَالَتْ: إِنَّهُ واللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، واللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِن أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ

رَسولَ الله ﷺ في امْرَأَتِكَ كما أَذِنَ لامْرَأَةِ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلتُ: والله لا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسولَ الله ﷺ، وما يُدْرِينِي ما يقولُ رَسولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذلكَ عَشْرَ لَيَالٍ، حتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً من حِينَ نَهَى رَسولُ الله ﷺ عن كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ من بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ الله؛ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يا كَعْبُ بنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وآذَنَ رَسولُ الله ﷺ بتَوْبَةِ الله عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، ورَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وسَعَى سَاعٍ من أَسْلَمَ، فأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ، وكانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الذي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ لَه ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا ببُشْرَاهُ، والله ما أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَومَئِذٍ، واسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وانْطَلَقْتُ إلى رَسولِ الله ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنِّئُونِي بالتَّوْبَةِ، يَقولونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإِذَا رَسولُ الله ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ الله يُهَرْوِلُ حتَّى

صَافَحَنِي وهَنَّانِي، والله ما قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، ولَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ وهو يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ ولَدَتْكَ أُمُّكَ، قَالَ: قُلتُ: أَمِنْ عِندِكَ يا رَسُولَ الله أَمْ مِن عِندِ الله؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِن عِندِ الله. وكانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُه حتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وكُنَّا نَعْرِفُ ذلكَ منه، فَلَمَّا جَلَسْتُ بينَ يَدَيْه قُلتُ: يا رَسُولَ الله، إنَّ مِن تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِن مَالِي صَدَقَةً إلى الله وإلَى رَسُولِ الله، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ؛ فَهو خَيرٌ لَكَ. قُلتُ: فإنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الذي بخَيْبَرَ، فَقُلتُ: يا رَسُولَ الله، إنَّ الله إنَّما نَجَّانِي بالصِّدقِ، وإنَّ مِن تَوْبَتِي أنْ لا أُحَدِّثَ إلَّا صِدْقًا ما بَقِيتُ. فَوَالله ما أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ الله في صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرَسُولِ الله ﷺ، أَحْسَنَ ممَّا أَبْلَانِي؛ ما تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرَسُولِ الله ﷺ إلى يَومِي هذا كَذِبًا، وإنِّي لَأَرْجُو أنْ يَحْفَظَنِي الله فِيما بَقِيتُ، وأَنْزَلَ الله على رَسُولِه ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩]، فَوَالله ما أَنْعَمَ الله عَلَيَّ مِن نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلام، أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِن صِدْقِي لِرَسولِ الله ﷺ، أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا؛ فإنَّ الله قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا - حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ - شَرَّ ما قَالَ لأَحَدٍ، فَقَالَ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]. قَالَ كَعْبٌ: وكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّها الثَّلَاثَةُ عن أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ منهمْ رَسولُ الله ﷺ حِينَ حَلَفُوا له، فَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهمْ، وأَرْجَأَ رَسولُ الله ﷺ أَمْرَنَا حتَّى قَضَى الله فِيهِ، فَبِذلِكَ قَالَ الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨]، وليسَ الذي ذَكَرَ الله مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ؛ إِنَّما هو تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ له واعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ منه"[1].

مما يُستفاد من قصة توبة كعب بن مالك ﷺ:

١- الصدق منجاة.

٢- مدى حرص الصحابة على النزول على أمر الله ورسوله ﷺ؛ فقد التزموا جميعًا بمقاطعة كعب ﷺ، بمن فيهم ابن عمه أبي قتادة الذي رفض الحديث معه.

(١) أخرجه البخاري: (٤٤١٨).

٣- الولاء والبراء من أهم ثوابت العقيدة الإسلامية، فلا يجوز الاستعانة بالكافر على المسلم، مهما وقع بين المسلمين من خلاف، كما فعل كعب ﷺ حين أحرق كتاب ملك غسّان.

٤- استحكام الشدة يحمل معه الفرج؛ فحين بلغ الأمر مداه وأحس كعب بأن الأرض ضاقت عليه، جاء الفرج بقبول التوبة.

٥- من السنن المحمودة مكافأة حامل البشرى؛ كما كسا كعب حامل بشارة التوبة ثوبه.

٦- جبر الخواطر لا يُنسَى؛ وذلك أن كعبًا لم يكن لينسى فعل طلحة حين قام إليه وهنأه؛ فليحرص كل منا على جبر خاطر إخوانه بما استطاع، ولو بكلمة طيبة.

ذكر مسجد الضرار:

كان أبو عامر الراهب أحد أشراف الخزرج، وكان قد تنصر في الجاهلية، وتطلع إلى رئاسة قومه، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة واجتمع عليه الناس، حقد أبو عامر عليه حقدًا كبيرًا، وعزم على معاداته أبدًا ما بقي، فشارك مع قريش يوم أحد، ثم لما رأى ما أحل بقريش من ضعف، لحق بالروم، ووعده هرقل أن ينصره ويمده بكل ما يحتاج إليه في الكيد لرسول الله ﷺ،

فتواصل أبو عامر مع منافقي المدينة، وأمرهم ببناء مسجد يتخذونه للتشاور في أمورهم، وشق صف المسلمين وصرفهم عن الصلاة في مسجد قباء، ولما كان بناة هذا المسجد معروفين بين الناس بنفاقهم، أرادوا أن يستوثقوا لأمرهم بصلاة رسول الله ﷺ في مسجدهم هذا، وكان النبي ﷺ قد تجهز للخروج إلى تبوك، فلما عاد إلى المدينة، أخبره ربه بحقيقة هذا المسجد، والغرض الدنيء من بنائه، فأمر ﷺ بهدم هذا المسجد وتحريقه، وأسماه الله ﷻ في كتابه "بمسجد الضرار". قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨]. "قال أَهْلُ التَّفْسِيرِ: لَمَّا اتَّخَذَ بَنُو عَمْرِو بْنُ عَوْفٍ مَسْجِدَ قباء، وبَعَثُوا إلى رَسُولِ الله ﷺ، فَأتاهم، فَصَلَّى فِيهِ؛ حَسَدَهم إِخْوَتُهم بَنُو غُنْم بْنُ عَوْفٍ، وكانُوا مِن مُنافِقِي الأَنْصارِ فَقالُوا: نَبْنِي مَسْجِدًا، ونُرْسِلُ إلى رَسُولِ الله فَيُصَلِّي فِيهِ ويُصَلِّي فِيهِ أَبُو عامِرٍ الرّاهِبُ إذا قَدِمَ مِنَ الشّامِ؛ وكانَ أَبُو عامِرٍ قَدْ تُرَهَّبَ في الجاهِلِيَّةِ وتَنَصَّرَ، فَلَمّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ، عاداهُ، فَخَرَجَ إلى الشّامِ، وأَرْسَلَ إلى المُنافِقِينَ أَنْ أَعِدُّوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وسِلاحٍ، وابْنُوا لِي مَسْجِدًا، فَإنِّي

ذاهبٌ إلى قَيْصَرَ فآتي بجُنْدِ الرُّوم فأُخْرِجُ مُحَمَّدًا وأصْحابَهُ، فَبَنَوْا هَذا المَسْجدَ إلى جَنْبِ مَسْجِدِ قَباءٍ؛ فَلَمّا فَرَغُوا منهُ، أتَوْا رَسُولَ الله ﷺ فقالُوا: إنّا قَدِ ابْتَنَيْنا مَسْجِدًا لِذي العلَّةِ والحاجَةِ واللَّيْلَةِ المَطِيرَةِ، وإنّا نُحِبُّ أنْ تَأْتِيَنا فَتُصَلِّيَ فيهِ؛ فَدَعى بقَمِيصِهِ لِيَلْبَسَهُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ وأخْبَرَهُ الله خَبَرَهُمْ، فَدَعا مَعْنُ بْنُ عُدَيٍّ، ومالِكُ بْنُ الدَّخْشَمِ في آخَرِينَ، وقالَ: "انْطَلِقُوا إلى هَذا المَسْجِدِ الظّالِمِ أهْلُهُ، فاهْدِمُوهُ وأحْرِقُوهُ"، وأمَرَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ أنْ يُتَّخَذَ كُناسَةً تُلْقى فِيها الجِيَفُ. ومات أبُو عامِرٍ بالشّامِ وحِيدًا غَرِيبًا.

والضِّرارُ بمَعْنى المُضارَّةِ لِمَسْجِدِ قباءٍ، (وَكُفْرًا) بالله ورَسُولِهِ (وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) لأنَّهم كانُوا يُصَلُّونَ في مَسْجِدِ قَباءٍ جَمِيعًا، فأرادُوا تَفْرِيقَ جَماعَتِهِمْ، والإرْصادُ: الانْتِظارُ فانْتَظَرُوا بِهِ مَجِيءَ أبي عامِرٍ، وهو الَّذِي حارَبَ الله ورَسُولَهُ مِن قَبْلِ بِناءِ مَسْجِدِ الضِّرارِ"[1].

(١) زاد المسير، (٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧).

قدوم الوفود

لما أقبل موسم الحج من السنة التاسعة للهجرة أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه ليحج بالناس؛ وذلك لانشغاله ﷺ باستقبال وفود العرب التي جاءت مسلمة؛ فقد أسلمت هوازن وثقيف، وتحقق فيهما دعاء النبي ﷺ بالهداية، ورد رسول الله ﷺ على القوم سبيهم؛ إكرامًا لهم. فعن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ حينَ جَاءَهُ وفْدُ هَوَازِنَ، قَامَ فِي النَّاسِ، فأثْنَى علَى الله بما هو أَهْلُهُ، ثُمَّ قالَ: "أَمَّا بَعْدُ، فإنَّ إخْوَانَكُمْ جَاؤُونَا تَائِبِينَ، وإنِّي رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إليهم سَبْيَهُمْ، فمَن أَحَبَّ مِنكُم أَنْ يُطَيِّبَ ذلكَ، فَلْيَفْعَلْ ومَن أَحَبَّ أَنْ يَكونَ علَى حَظِّه حتَّى نُعْطِيَهُ إيَّاهُ مِن أَوَّلِ ما يُفِيءُ الله عَلَيْنَا، فَقالَ النَّاسُ: طَيَّبْنَا لَكَ"[1].

ولما خرج أبو بكر رضي الله عنه بركب الحجيج نزلت على النبي ﷺ سورة براءة (التوبة)، فأسرع رسول الله ﷺ بإرسال علي بن أبي طالب في إثر أبي بكر؛ ليبلغ قبائل العرب بأمر نقض العهود،

(١) أخرجه البخاري: (٢٥٨٣).

وإمهال الله ورسوله لهم أربعة أشهر ليحددوا أمرهم. قال ابن الجوزي ﷺ: "فَإِنْ تَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ فِي أَخْذِ (بَرَاءَةَ) مِن أَبِي بَكْرٍ، وتَسْلِيمِها إِلى عَلِيٍّ، تَفْضِيلاً لِعَلِيٍّ عَلى أَبِي بَكْرٍ، فَقَدْ جَهِلَ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَجْرى العَرَبَ فِي ذَلِكَ عَلى عادَتِهِمْ. قالَ الزَّجّاجُ: وقَدْ جَرَتْ عادَةُ العَرَبِ فِي عَقْدِ عَهْدِها ونَقْضِها، أَنْ يَتَوَلّى ذَلِكَ عَلى القَبِيلَةِ رَجُلٌ مِنها؛ وجائِزٌ أَنْ تَقُولَ العَرَبُ إِذا تَلا عَلَيْها نَقْضَ العَهْدِ مَن لَيْسَ مِن رَهْطِ النَّبِيِّ ﷺ: هَذا خِلافُ ما نَعْرِفُ فِينا فِي نَقْضِ العُهُودِ، فَأَزاحَ النَّبِيُّ ﷺ العِلَّةَ بِما فَعَلَ"[1]. يقول الله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة: ١ - ٥]، فأقبلت حينئذ القبائل من كل فج تبايع رسول الله ﷺ وتنزل على أمره، فأسلم بنو

(١) زاد المسير، (٢/ ٢٣٢).

سعد بن بكر، والأزد، وبنو حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب -وسنتحدث عنه بعد قليل إن شاء الله-، وأسلم عدي بن حاتم الطائي وفروة بن عمرو الجذامي، وأقبل وفد نصارى نجران، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأبوا وجادلوه بالباطل في شأن عيسى عليه السلام، فعندئذ دعاهم إلى المباهلة، والمباهلة هي التلاعن، فيجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لَعْنَةُ الله على الظالم منا. قال الله ﷻ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، فخاف القوم وخشوا على أنفسهم الهلاك؛ لعلمهم أنه رسول الله حقًا، فآثروا دفع الجزية.

وكان رسول الله ﷺ حريصًا على تعليم الوفود أمر دينهم، فلَمَّا قَدِمَ وفْدُ عبدِ القَيْسِ علَى النبيِّ ﷺ قالَ: مَرْحَبًا بالوَفْدِ، الَّذِينَ جَاؤُوا غيرَ خَزَايَا ولَا نَدَامَى، فَقالوا: يا رَسولَ الله، إنَّا حَيٌّ مِن رَبيعَةَ، وبيْنَنَا وبيْنَكَ مُضَرُ، وإنَّا لا نَصِلُ إلَيْكَ إلَّا في الشَّهْرِ الحَرَامِ، فَمُرْنَا بأَمْرٍ فَصْلٍ نَدْخُلُ به الجَنَّةَ، ونَدْعُو به مَن ورَاءَنَا، فَقالَ: أرْبَعٌ وأَرْبَعٌ: أَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وآتُوا الزَّكَاةَ، وصُومُوا رَمَضَانَ، وأَعْطُوا خُمُسَ ما غَنِمْتُمْ. ولَا تَشْرَبُوا في

الدُّبَّاءِ والحَنْتَمِ والنَّقِيرِ والمُزَفَّتِ[1].

وأما ما كان من أمر مسيلمة الكذاب، فقد كان طامعًا في ملك العرب، فارتد بعد عودة قومه إلى ديارهم باليمن وادعى النبوة، وقَدْ كَتَبَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فقال: مِنْ مُسَيْلِمَةَ رَسُولِ الله، إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله: سَلامٌ عَلَيْك، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ أُشْرِكْتُ فِي الْأَمْرِ مَعَكَ، وَإِنَّ لَنَا نِصْفَ الْأَرْضِ، وَلِقُرَيْشٍ نِصْفَ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ. فَقَدِمَ عَلَيْهِ ﷺ رَسُولَانِ لَهُ بِهَذَا الْكِتَابِ. فقال رَسُولَ الله ﷺ لَهُمَا حِينَ قَرَأَ كِتَابَهُ: فَمَا تَقُولَانِ أَنْتُمَا؟ قَالَا: نَقُولُ كَمَا قَالَ، فَقَالَ: أَمَا وَالله لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا.

ثُمَّ كَتَبَ إِلَى مُسَيْلِمَةَ: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله، إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ: (السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يُشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ). وَذَلِكَ فِي آخِرِ سَنَةِ عَشْرٍ.

(١) أخرجه البخاري: (٦١٧٦).

حجة الوداع

استقر أمر الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ودانت سائر جزيرة العرب لرسول الله ﷺ بالطاعة والولاء، وكأنما رسول الله ﷺ قد أتم مهمته، فخرج في السنة العاشرة حاجًّا إلى بيت الله الحرام؛ ليودع أمته ويوصيهم بما يثبت عليهم من بعده دينهم.

وخرج رسول الله ﷺ إلى الحج لخمس ليالٍ بَقينَ من ذي القعدة، واستعمل أبا دجانة رضي الله عنه على المدينة، وحين علم الناس بخروجه ﷺ إلى الحج وافاه في الطريق خلقٌ كثير لا يُحصَون عددًا، ودخل هذا الموكب الرباني إلى ربوع مكة وبيت الله الحرام يلبون، ويسألون الله العفو والمغفرة، ونبي الله تعالى بين أظهرهم يرى ثمرة دعوته وجهاده في سبيل الله، فلكمْ تحمل المشاق طوال ثلاث وعشرين سنة، هي عمر الدعوة! ولَكمْ أوذي وفقد في سبيل الله الأحباب والأصحاب! حتى أتم الله تعالى أمر دينه. يقول ﷻ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقد نزلت هذه

الآيـة عَـلى رَسُـولِ الله ﷺ وهـو قائِـمٌ بِعَرَفَـةَ، فكانـت إيذانًـا بكـمال الديـن وتمـام النعمـة عـلى المسـلمين. ولم يـأتِ أحـدٌ مـن النـاس يسـأل رسـول الله ﷺ شـيئا مـن مناسـك الحـج إلا وقـال: (افعـل ولا حـرج)؛ تيسـيرًا عـلى عبـاد الله، ثـم يقـول ﷺ لهـم: (خـذوا عنـي مناسـككم، لَعـلِّي لا أراكـم بعـدَ عامـي هـذا)[1].

فلـما كان يـوم النحـر، قـام رسـول الله ﷺ في النـاس خطيبًـا، فعـن أبي بكـرة نفيـع بـن الحـارث رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: (إنَّ الزَّمـانَ قَـدِ اسْـتَدارَ كَهَيْئَتِـهِ يَـومَ خَلَـقَ الله السَّـمَواتِ والأرْضَ، السَّـنَةُ اثْنـا عَـشَرَ شَـهْرًا، مِنْهـا أرْبَعَـةٌ حُـرُمٌ، ثَـلاثٌ مُتَوالِيـاتٌ: ذُو القَعْـدَةِ، وذُو الحِجَّـةِ، والمُحَـرَّمُ، ورَجَـبُ مُـضَرَ الـذي بـيْنَ جُمـادَى وشَـعْبانَ، أيُّ شَـهْرٍ هـذا؟ قُلْنـا: الله ورَسـولُهُ أعْلَـمُ، فَسَـكَتَ حتَّـى ظَنَنَّـا أنَّـه سَيُسَـمِّيهِ بغـيرِ اسْـمِهِ، قـالَ: أليـسَ ذا الحِجَّـةِ؟ قُلْنـا: بَـلَى، قـالَ: أيُّ بَلَـدٍ هـذا؟ قُلْنـا: الله ورَسـولُهُ أعْلَـمُ، فَسَـكَتَ حتَّـى ظَنَنَّـا أنَّـه سَيُسَـمِّيهِ بغـيرِ اسْـمِهِ، قـالَ: أليـسَ البَلْـدَةَ؟ قُلْنـا: بَـلَى، قـالَ: فـأيُّ يَـومٍ هـذا؟ قُلْنـا: الله ورَسـولُهُ أعْلَـمُ، فَسَـكَتَ حتَّـى ظَنَنَّـا أنَّـه سَيُسَـمِّيهِ بغـيرِ اسْـمِهِ، قـالَ: أليـسَ يَـومَ النَّحْـرِ؟ قُلْنـا: بَـلَى، قـالَ: فـإنَّ دِماءَكُـمْ وأَمْوالَكُـمْ - قـالَ مُحَمَّـدٌ: وأَحْسِـبُهُ قـالَ - وأَعْراضَكُـمْ

(١) أخرجـه النسـائي (٣٠٦٢)، والطحـاوي في ((أحـكام القـرآن)) (١٣٥٩)، وابـن عـدي في ((الكامـل في الضعفـاء)) (١/ ١٨٦) باختـلاف يسـير.

علَيْكُم حَرامٌ، كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، وسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عن أعْمالِكُمْ، ألا فلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ، ألا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَن يَبْلُغُهُ أنْ يَكونَ أوْعَى له مِن بَعْضِ مَن سَمِعَهُ - وكانَ مُحَمَّدٌ إذا ذَكَرَهُ قالَ: صَدَقَ النبيُّ ﷺ، ثُمَّ قالَ - ألا هلْ بَلَّغْتُ، ألا هلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَيْنِ)[1].

وفي رواية عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (كُنَّا نَتَحَدَّثُ بحَجَّةِ الوَداعِ والنَّبيُّ ﷺ بيْنَ أظْهُرِنا، ولا نَدْري ما حَجَّةُ الوَداعِ، فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عليه، ثُمَّ ذَكَرَ المَسيحَ الدَّجَّالَ فأطْنَبَ في ذِكْرِهِ، وقالَ: ما بَعَثَ اللهُ مِن نَبيٍّ إلَّا أنْذَرَ أُمَّتَهُ؛ أنْذَرَهُ نُوحٌ والنَّبِيُّونَ مِن بَعْدِه، وإنَّه يَخْرُجُ فِيكُمْ، فَما خَفِيَ علَيْكُم مِن شَأْنِه فليسَ يَخْفَى علَيْكُم: أنَّ رَبَّكُمْ ليسَ علَى ما يَخْفَى علَيْكُم، ثَلاثًا، إنَّ رَبَّكُمْ ليسَ بأَعْوَرَ، وإنَّه أعْوَرُ عَيْنِ اليُمْنَى، كَأنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طافِيَةٌ. ألَا إنَّ اللهَ حَرَّمَ علَيْكُم دِماءَكُمْ وأَمْوالَكُمْ، كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، ألَا هلْ بَلَّغْتُ؟ قالوا: نَعَمْ، قالَ: اللهمَّ اشْهَدْ -ثَلاثًا- وَيْلَكُمْ! -أوْ ويْحَكُمْ- انْظُرُوا، لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ)[2].

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه البخاري: (٤٤٠٢).

فلما كان اليوم الأوسط من أيام التشريق، رسَّخ رسول الله ﷺ في نفوس الناس واحدًا من أعظم مبادئ الإسلام، وهو "المساواة"، فقال ﷺ: (يا أيُّها الناسُ إنَّ ربَّكمْ واحِدٌ، ألا لا فضلَ لِعربيٍّ على عجَميٍّ، ولا لِعجَميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسْودَ، ولا لأسودَ على أحمرَ إلَّا بالتَّقوَى، إنَّ أكرَمكمْ عند الله أتْقاكُمْ)[1]... قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٣/ ١٠٠)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥١٣٧).

مرض رسول الله ﷺ ووفاته

بعد أن قفل رسول الله ﷺ من الحج أحس بدنو أجله، وبدأ المرض يدب في بدنه، فصعد يومًا على المنبر فقال: "إنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْن أنْ يُؤْتِيَهُ مِن زَهْرَةِ الدُّنْيا ما شاءَ، وبيْنَ ما عِنْدَهُ، فاخْتارَ ما عِنْدَهُ". فَبَكَى أبو بَكْر وقالَ: فَدَيْناكَ بآبائنا وأُمَّهاتنا، فَعَجِب الناس له، وقالوا: انْظُرُوا إلى هذا الشَّيْخ؛ يُخْبِرُ رَسولُ الله ﷺ عن عَبْدٍ خَيَّرَهُ الله بَيْنَ أنْ يُؤْتِيَهُ مِن زَهْرَةِ الدُّنْيا ، وبيْنَ ما عِنْدَهُ، وهو يقولُ: فَدَيْناكَ بآبائنا وأُمَّهاتنا! فَكانَ رَسولُ الله ﷺ هو المُخَيَّرَ، وكانَ أبو بَكْر هو أعْلَم الناس به. ثم قالَ ﷺ: "إنَّ مِن أمَنِّ النَّاسِ عَليَّ في صُحْبَتِه ومالِه أبا بَكْر، ولو كُنْتُ مُتَّخِذًا خَليلاً مِن أُمَّتي لاتَّخَذْتُ أبا بَكْر، إلَّا خُلَّةَ الإسْلام، لا يَبْقَيَنَ في المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إلَّا خَوْخَةُ أبي بَكْر"[1]... فكانت هذه الكلمات وفاءً لحق صاحبه الذي آمن به وقت كذبه الناس، وآزره في دين الله وواساه.

ثم إن النبي ﷺ اشتد عليه المرض، واستولت على جسده الحمى، فجعل يوعك وعكًا شديدًا. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

(١) أخرجه البخاري: (٣٩٠٤).

دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وهو يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فَمَسِسْتُهُ بيَدِي، فَقُلتُ: يا رَسولَ الله، إنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا! فقالَ رَسولُ الله ﷺ: (أجَلْ، إنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلانِ منكُم، فَقُلتُ: ذلكَ أنَّ لكَ أجْرَيْنِ؟ فقالَ رَسولُ الله ﷺ: أجَلْ. ثُمَّ قالَ رَسولُ الله ﷺ: ما مِن مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أذًى؛ مَرَضٌ فَما سِواهُ، إلَّا حَطَّ الله له سَيِّئاتِهِ، كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ ورَقَها)[1]... وتحامل رسول الله ﷺ على نفسه فخرج إلى الناس في المسجد عاصبًا رأسه، فأوصاهم قائلا: (استوصوا بالأنصارِ خيرًا، استوصوا بالنِّساءِ خيرًا، أخرِجوا اليهودَ من جزيرةِ العربِ)[2].

ثم إن رسول الله ﷺ لم يستطع أن يصلي بالناس، فأمر أبو بكر رضي الله عنه أن يصلي بهم. عن عائشة رضي الله عنها قالت: لَمَّا ثَقُلَ رَسولُ الله ﷺ جَاءَ بلَالٌ يُؤذِنُهُ بالصَّلَاةِ، فَقالَ: مُرُوا أبَا بَكْرٍ أنْ يُصَلِّيَ بالنَّاسِ، فَقُلتُ: يا رَسولَ الله إنَّ أبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أسِيفٌ وإنَّه مَتَى ما يَقُمْ مَقَامَكَ لا يُسْمِعُ النَّاسَ، فلوْ أمَرْتَ عُمَرَ، فَقالَ: مُرُوا أبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بالنَّاسِ فَقُلتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي له: إنَّ أبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أسِيفٌ، وإنَّه مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لا يُسْمِعُ النَّاسَ، فلوْ أمَرْتَ عُمَرَ، قالَ: إنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أبَا بَكْرٍ أنْ

(١) أخرجه البخاري: (٥٦٦٠).

(٢) أخرجه الشوكاني في الفتح الرباني: (٢/ ٩٦٩)، وقال: ثبتٌ في الأمهات.

يُصَلِّي بالنَّاسِ فَلَمَّا دَخَلَ في الصَّلَاةِ وجَدَ رَسولُ الله ﷺ في نَفْسِهِ خِفَّةً، فَقَامَ يُهَادَى بيْنَ رَجُلَيْنِ، ورِجْلَاهُ يَخُطَّانِ في الأرْضِ، حتَّى دَخَلَ المَسْجِدَ، فَلَمَّا سَمِعَ أبو بَكْرٍ حِسَّهُ، ذَهَبَ أبو بَكْرٍ يَتَأَخَّرُ، فأوْمَأَ إلَيْهِ رَسولُ الله ﷺ، فَجَاءَ رَسولُ الله ﷺ حتَّى جَلَسَ عن يَسَارِ أبي بَكْرٍ، فَكانَ أبو بَكْرٍ يُصَلِّي قَائِماً، وكانَ رَسولُ الله ﷺ يُصَلِّي قَاعِداً، يَقْتَدِي أبو بَكْرٍ بصَلَاةِ رَسولِ الله ﷺ والنَّاسُ مُقْتَدُونَ بصَلَاةِ أبي بَكْرٍ رضي الله عنه[1]... وفي هذا إشارة واضحة على رضا رسول الله ﷺ بخلافةِ أبي بكر رضي الله عنه من بعده.

واشتدت على النبي ﷺ سكرات الموت، فجاءته فاطمة رضي الله عنها تبكي وتقول: وا كَرْبَ أبَاهُ! فَقالَ لَهَا: ليسَ علَى أبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَومِ[2]. وتوفي ﷺ يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأولَ للسنة الحادية عشرة من الهجرة، وقد تم له ثلاث وستون سنة.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (مات رسولُ الله ﷺ في يومي بَيْنَ سَحْرِي ونَحْرِي، فدخَل عبدُ الرَّحمن بنُ أبي بكرٍ عليه ومعه سواكٌ رَطْبٌ فنظَر إليه فظَنَنْتُ أنَّ لَه إليه حاجةً، فأخَذْتُه فمضَغْتُه وقضَمْتُه وطيَّبْتُه، فاستَنَّ كأحسَنِ ما رأَيْتُه مُستَنًّا،

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه البخاري: (٤٤٦٢).

ثـمَّ ذهَـب يرفَـعُ فسـقَط، فأخَـذْتُ أدعـو الله بدُعـاءٍ كان يدعـو بـه جِبريـلُ أو يدعـو بـه إذا مـرِض فجعَـل يقـولُ: (بَـلِ الرَّفيـقَ الأعـلى مِـن الجنَّـةِ ـ ثلاثًـا ـ) وفاضَـتْ نفسُـه ﷺ، فقالـتِ: الحمـدُ لله الَّـذي جمَـع بَـيْنَ رِيقـي ورِيقِـه في آخِـرِ يـومٍ مِـن الدُّنيـا)[1].

ويقـول أنـس بـن مالـك ﷺ: (لَمَّـا كانَ اليـومُ الَّـذي دخـلَ فيـهِ رسـولُ الله ﷺ المدينـةَ أضـاءَ منْهـا كلُّ شيءٍ، فلـمَّا كانَ اليـومُ الَّـذي مـاتَ فيـهِ أظلـمَ منْهـا كلُّ شيءٍ، ونفَضنـا عـن رسـولِ الله ﷺ الأيدي وإنَّـا لفـي دفنِـهِ حتَّـى أنْكَرنـا قلوبَنـا)[2].

وتم بحمد الله ومنته وتوفيقه.

يوم الجمعة ١٧ رجب سنة ١٤٤٦هـ

الموافق لـ ١٧ يناير سنة ٢٠٢٥م

الإسكندرية

---

(١) أخرجه شعيب الأرناؤوط في صحيح ابن حبان: (٦٦١٧).

(٢) أخرجـه الترمـذي (٣٦١٨) واللفـظ لـه، وابـن ماجـه (١٦٣١)، وأحمـد (١٣٨٣٠)

الفؤاد بكم يهيم

(قد كتبتها بمداد عيني، وزفرات شوقي إلى الحبيب المصطفى ﷺ وصحبه الكرام، فاللهم لا تحرمني وأمي صحبتهم في الآخرة، وكل من أمَّن على دعائي).

وقد أنشدتُ في مدحه ﷺ، فقلت[1]:

يا صاحبَ الخُلُقِ العظيم إنَّ الفؤادَ بكم يهيمْ
صلى الإلهُ على الحبيب والرُّسْلُ والملأ الكريمْ
نورٌ بُعِثتَ إلى الورى تهدي الصراطَ المستقيمْ
للناسِ أجمعُ رحمةٌ أُرسِلتَ من لَدُنِ الرحيمْ
تؤوي الضعيفَ وتنصفُ الـ مظلومَ من ضيمِ الزنيمْ
بالوصلِ تجزي مَن قطع تدعو لإكرامِ اليتيمْ
داعٍ إلى خيرِ الهدى بضياءِ قرآنٍ كريمْ
وبشيرُ تنذرُ لم تخفْ بطشًا ولا قولَ الأثيمْ
كانوا قُبَيلَكَ في عمىً تبعًا لشيطانٍ رجيمْ

(١) نُشِرت هذه القصيدة بجريدة عقيدتي، عدد الثلاثاء: ١١ ربيع الأول ١٤٤٥هـ - ٢٦ سبتمبر ٢٠٢٣م.

أنذرتَهم في حكمةٍ خوَّفتَهم سوءَ الجحيمْ
رغّبتَهم في رأفةٍ طمعًا بجناتِ النعيمْ
صبرًا على كلِّ الأذى صبرًا على كيدِ اللئيمْ
من البيتِ تخرجُ مُكرَهًا والقلبُ يسكنُ بالحَطيمْ
والوعدُ من ربِّ السما بالعَودِ والنصرِ العميمْ
يا أرضَ طيبةَ فاسعدي بُشراكِ بالخيرِ المقيمْ
آخيتَ كلَّ مهاجرٍ أنصارِ فَهْوَ أَخٌ حميمْ
وهناكَ تبني دولة الـ إسلامِ بالعزمِ الصميمْ
ما زلتَ تسعى جاهدًا والكفرُ أنتَ له خصيمْ
والدينُ يسري نورُهُ كالنارِ تسري في الهشيمْ
وتعودُ مكةَ فاتحًا بتواضعِ الصبِّ الحليمْ
وتقولُ انطلقوا اذهبوا عفوًا عن الماضي الأليمْ
والكلُّ يدخلُ في السَّلَمْ طوعًا إلى النهجِ القويمْ
والأرضُ تُشرقُ بالهدى والعدلُ يهفو كالنسيمْ
خَصَفَ النعالَ وبينما للعُرْبِ كان لهم زعيمْ
أخجلتني بتواضعك وجميلِ وصفكَ يا كريمْ
يكفيك ربُّكَ عِزَّةً مدحًا وبالخُلُقِ العظيمْ

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام، ضبط وتخريج: حلمي بن إسماعيل الرشيدي، دار العقيدة، الإسكندرية، الطبعة الثانية، ١٤٣٠. هـ - ٢٠٠٩.م، عدد الأجزاء: ٢.

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، طبعة: ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧.م، عدد الأجزاء: ٧.

- السيرة النبوية (عرض وقائع وتحليل أحداث)، علي محمد الصلابي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، طبعة: ٢٠١٣.م

- روضة الأنوار في سيرة النبي المختار، صفي الرحمن المباركفوري، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة: ١٤٢٨. هـ.

- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

- اللبنة المتممة (دلائل صدق نبوة محمد ﷺ)، هند الورداني، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٤٤. هـ - ٢٠٢٣.م

- باب السعادة (وجدت سعادتي مع القرآن)، هند الورداني، دار البشير، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٤٢. هـ - ٢٠٢١م.

المراجع الإلكترونية:

- الموسوعة الحديثية للدرر السنية.

https: / /dorar.net /hadith

الفهرس

الإهداء ٧
مقدمة ٩
أسماؤه ﷺ ١١
وصف النبي ﷺ ١٣
صفة النبي ﷺ ١٧
معجزاته ﷺ ٢٥
السيرة النبوية: قبل البعثة ٣١
النسب الشريف ٣٣
مولده ﷺ ٣٥
رضاع النبي ﷺ وحادثة شق الصدر ٣٧
وفاة أمه ﷺ وكفالة جده وعمه ٤١
سفره ﷺ مع عمه للتجارة وشغله بالرعي ٤٣
زواجه بالسيدة خديجة رضي الله عنها ٤٧
شهوده ﷺ بناء الكعبة ٥١
البعثة والمرحلة المكية ٥٣
بدء الوحي ٥٥
الدعوة السرية ٦١

الجهر بالدعوة..... ٦٣
قريش ترفض دعوة النبي..... ٦٥
الهجرة الأولى للحبشة ٧١
المقاطعة الاقتصادية والهجرة الثانية للحبشة ٧٣
عام الحزن ٧٧
محنة الطائف ٧٩
الإسراء والمعراج ٨١
بيعة العقبة الأولى ٨٥
بيعة العقبة الثانية ٨٧
بدء هجرة المسلمين إلى المدينة..... ٨٩
رحلة الهجرة..... ٩١
المرحلة المدنية..... **٩٧**
في المدينة..... ٩٩
هجرة آل البيت ١٠١
بناء المسجد النبوي ١٠٣
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار..... ١٠٥
اليهود في المدينة ١٠٧
مشروعية القتال..... ١٠٩
حركة السرايا ١١١
تحويل القبلة وأحداث أخرى..... ١١٥
غزوة بدرٍ الكبرى ١٢١

غزوة بني قينقاع ١٣١
غزوة أُحُد ١٣٥
حمراء الأسد..... ١٤٥
فاجعة الرجيع ١٤٧
بئر معونة ١٥١
إجلاء بني النضير ١٥٥
بدر الآخرة ودومة الجندل..... ١٥٩
غزوة بني المصطلق..... ١٦١
حادثة الإفك ١٦٥
غزوة الأحزاب ١٧٥
غزوة بني قريظة..... ١٨٥
زواجه ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها..... ١٨٧
صلح الحديبية..... ١٩١
فتح خيبر ٢٠١
عمرة القضاء ٢٠٥
سرية مؤتة ٢١٣
فتح مكة..... ٢١٧
غزوة حُنين والطائف ٢٢٧
قدوم كعب بن زهير وقصيدة البردة ٢٣٥
غزوة تبوك..... ٢٣٩
قدوم الوفود ٢٥٥

حجة الوداع ٢٥٩
مرض رسول الله ﷺ ووفاته..... ٢٦٣
الفؤاد بكم يهيم..... ٢٦٧
المصادر والمراجع ٢٦٩